ركن الثقافة الإسلامية

ذلكم وصاكم به

الوصايا العشر

محمد منير الجنباز

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

الجديد
NEW & EXCLUSIVE

شبكة الألوكة
www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ح دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الجنباز، محمد منير
ذلكم وصاكم به: الوصايا العشر - الرياض
٢٠٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك × - ١٤ - ٨٤٠ - ٩٩٦٠
١ - الأخلاق الإسلامية ٢ - الوعظ والإرشاد ٣ - القرآن - مباحث عامة
أ - العنوان
ديوي ٢١٢ ١٩ / ٤٥٠٣

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع: ١٩ / ٤٥٠٣
ردمك: × - ١٤ - ٨٤٠ - ٩٩٦٠

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
العليا - غرب مؤسسة التحلية
ت: ٤٦٥١٦٨٩ - ٤٦٣١٧٢٢
ص.ب: ٦٤٢٠٦ - الرياض: ١١٤٤٢
تليفاكس: ٤٦٣١٢٣٦
المملكة العربية السعودية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ركن الثقافة الإسلامية

ذلكم وصاكم به

الوصايا العشر

محمد حسين الجنباز

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقدمة

إن الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله ﷺ...

وبعد:

فإن هذا هو الكتاب الثاني في سلسلة «ركن الثقافة الإسلامية» شرحت فيه الوصايا العشر التي وردت في ثلاث آيات من سورة الأنعام، وهي وصايا إسلامية مهمة تتعلق بالعقيدة والتعامل بين الناس، ولقد دعمت شرح هذه الوصايا بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة والقصص الواقعية والأخبار التاريخية لأضفي على الموضوع مسحة أدبية تمنحه مزيداً من التشويق والمتابعة من خلال واقعية موضوعية تزيد من ثقافة القارئ الإسلامية والتأريخية، مع المعاصرة التي لابد منها، وذلك من خلال الأحاديث النبوية والأخبار التأريخية التي جمعتها جاهداً من بطون الكتب، والتي لا يمكن للقارئ أن يجمعها بسهولة فيما لو أراد ذلك، أو حاول، فجاءت بكثرتها وفائدتها ضمن هذا الكتاب السهل الصغير بعدد أوراقه الكبير بفوائده إن شاء الله، ولقد شجعني على الكتابة في هذا الموضوع ما لقيته من الكتاب الأول «المفلحون» فقد بلغني ممن قرؤوه ما لمسوا من فوائده وعظيم أثره؛ فكان بحول الله وتوفيقه هذا الكتاب الذي يعد امتداداً له.

أسأل الله لنا الأجر وعظيم الذخر إنه حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين الجباز

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التمهيد:

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً...

وبعد:

فهذا موضوع طريف يتعلق بحياة الإنسان ومصيره في الدنيا والآخرة تبينه لنا الوصايا العشر من سورة الأنعام في القرآن الكريم، وتوضح لنا الطريق السوي لنسلكه على بصيرة، متبعين ما أنزل الله في كتابه، ومتمسكين بما وصانا به من وصايا نافعة مفيدة، سائرين على هدي نبينا محمد ﷺ بخطى ثابتة وقلب واع مستنير.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾(١).

هذه الآيات الكريمة من سورة الأنعام من الآية ١٥١ – ١٥٣، وسورة الأنعام تعد من السور الطويلة التي نزلت في مكة، لذا فلها أهمية خاصة، فهي أصل محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذّب بالبعث والنشور.

أما الآيات التي نحن بصدد شرحها فقد قال عنها بعض أهل العلم: « إنها مدنية » أي نزلت بالمدينة، قال الثعلبي: « سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة وهي؛ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر ثلاث آيات – أي من الآية ٩١ وحتى الآية

---

(١) الأنعام ١٥١ – ١٥٣.

هذا من شبكة الألوكة www.alukah.net

و﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر ثلاث آيات – أي من الآية ١٥١ وحتى الآية ١٥٣ » وقال ابن عطية عن هذه الآيات الثلاث: « هي الآيات المحكمات » وورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: « أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة وحولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح »

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتقديس والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم » وقد وردت أخبار كثيرة في هذا المعنى يقوي بعضها بعضاً، كما وردت أحاديث عن فضل تلاوتها فليراجعها من شاء في التفاسير المطولة مثل « تفسير ابن كثير – وفتح القدير. . .) أما التحقيق حول ما ورد في الأحاديث من أنها نزلت جملة واحدة في مكة، أي أن كل آياتها مكية، فلا يمنع أن يحمل هذا على الأكثر، فآياتها مائة وخمس وستون آية والأيات الست أو الثلاث قليلة إذا قيست بالعدد الكلي، وعليه فما ورد من أحاديث تفيد بنزولها جملة واحدة لا يعدو أن يكون للتغليب، وذكر النحاس في تاريخه عن ابن عباس قال: « سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث ».

أهمية هذه الآيات وما قيل فيها:

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: « في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ » الآيات، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ » ويروي الحاكم في مسنده من حديث يزيد بن هارون عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أيكم يبايعني على ثلاث »؟ ثم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تلا رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ من الآيات «فمن وفّى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخّر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه» وقال صحيح الإسناد.

وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما، هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وقيل: إنهن أم الكتاب، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار» وعن كعب الأحبار: «والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة» فهي وصية الأنبياء لأممهم، وقد ذكر الشوكاني في فتح القدير هذا: «لم يزل كل نبي يوصي بها أمته» وعن كعب الأحبار قال: أول ما أنزل في التوراة عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾. قال الشوكاني: هي الوصايا العشر التي في التوراة، وأولها «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله غيري، ومنها: أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تَشْتَهِ بنت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك» فلعل مراد كعب الأحبار هذا، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم، وأهل الانجيل في أول إنجيلهم»

معنى المحكم والمتشابه:

ورد قبل قليل أن هذه الآيات محكمات فما معنى المحكم في القرآن الكريم؟

جاء في سورة آل عمران ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾(١).

---

(١) آل عمران: ٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المحكم: اسم مفعول من أحكم، والإحكام: الإتقان.

وفي تفسير المحكم والمتشابه أقوال:

١ – المحكم: ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل.

٢ – المحكم: ما لا يحتمل إلا وجها واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً.

٣ – المحكم: الناسخ، والمتشابه: المنسوخ.

٤ – المحكم: الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه: ما فيه تصريف وتحريف وتأويل.

٥ – المحكم: ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره، والمتشابه: ما يرجع فيه إلى غيره.

٦ – وهذا قول الشوكاني الذي لخص فيه ما سبق، المحكم: هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة، إما باعتبار نفسه، وباعتبار غيره، والمتشابه: ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره(١).

لذلك وصف الله تعالى الآيات المحكمات: بأنهن أم الكتاب، أي أصله الذي يعتمد عليه ويرد ما خالفه إليه.

وأما المتشابه: فهو الذي يحتاج إلى أهل العلم لتأويله ورده إلى المحكم إن كان ممكناً وإلا فأمره موكول إلى الله، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ إلى قوله ﴿أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عنى فاحذروهم».

وفي لفظ «فإذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سماهم الله

---

(١) انتهى ملخصاً عن تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فاحذروهم» وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن على سبعة أحرف؛ زاجر وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فَأَحِلّوا حلاله وحَرّموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به، وانتهو عما نُهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمِنُوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا» ومن المتشابه الذي يرد تأويله إلى الله، أَمْر الروح والساعة، وكذلك فواتح السور مثل ألم، ألمر، حم، طس، طسم، كهيعص ... إلخ **وقد يتبادر إلى الذهن سؤال عن وجود المتشابه في القرآن الكريم لِمَ كان علمه إلى الله ولا يعلم تأويله أحد؟** فقبل الإجابة على هذا السؤال علينا أن نعلم حقيقة راسخة بشأن القرآن الكريم وردت في الحديث الشريف، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن، فخرج محمرة وجنتاه كأنما يقطران دماً فقال: يا قوم لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضهم بعضاً، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً، فما كان من محكمه فاعملوا به وما كان من متشابهه فآمنوا به» ولذا فإن من فوائد وجود المتشابه في القرآن الكريم هو امتحاننا به، لقوله تعالى ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**﴾ وهم الذين يؤولونه حسب أهوائهم بلا دليل، ومن فوائد المتشابه أيضًا أن يُعمِل العلماء الراسخون في العلم فكرهم لاستنباط الحكم منه والوصول إلى الحق بعد مشقة وجهد ليكون بين الناس صفوة يؤتمنون على إصدار الأحكام، فلا يستطيع أحد أن يدعي الفهم إن لم يكن من أئمة العلم ويكون المتشابه بمثابة اختبار يمتاز به العالم عن الجاهل، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفسير القرآن على أربعة وجوه:

١ – تفسير يعلمه العلماء.

٢ – وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام.

٣ – وتفسير تعرفه العرب بلغتها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٤ – وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله، من أدعى علمه فهو كاذب» رواه ابن جرير.

وأما ما ورد من آيات تبين أن القرآن كله محكم فمعناه في غير هذا التقسيم قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾(١) والمراد بالمحكم هنا: أنه صحيح الألفاظ قويم المعاني فائق البلاغة والفصاحة على كل كلام آخر، وكذلك ما ورد من أنه متشابه كله فكذلك في غير التقسيم السابق قال الله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾(٢)

وهو هنا أنه يشبه بعضه بعضاً من حيث الصحة والفصاحة والبلاغة والحسن، فهل ينبغي لإنسان أن يخوض في المتشابه الذي اختص الله نفسه بعلمه ليدل بذلك على عجز أهل العلم وفصحاء العرب؛ بأنهم قاصرون مهما بلغوا من العلم، وأن لعلمهم حداً يقفون عنده؟، فكما ميزهم بعلمهم عن من هم أدنى منهم بحيث جعل لهم متشابهاً من القرآن يصلون إلى معرفته، فكذلك خص الله نفسه جل شأنه بنوع من المتشابه لا يصل لمعرفته أحد إلا هو سبحانه، لذلك فالخوض في هذا النوع ممنوع لأنه خوض في تأويل المستحيل ومن ادعى أنه استنبط منه علماً ومعرفة – سوى الله – فقد كذب، وعند الدارمي: «أن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل، فقال عمر: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ فقال وأنا عبد الله عمر، فأخذ عرجوناً من تلك العراجين فضربه به حتى دمي رأسه، فقال يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي» ومع ذلك فقد كتب عمر إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا صبيغاً.

---

(١) سورة هود: ١.

(٢) سورة الزمر ٢٣.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوصية الأولى:

الإيمان بالله تعالى وعدم الشرك به

مقدمة الوصية الأولى:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾.

بدأ الله سبحانه وتعالى قوله في هذه الآيات الكريمة بخطاب النبي ﷺ ليدعو قومه ويسمعهم ما حرم عليهم ربهم، فقال له: قل لهم يا محمد: تعالوا إلي لأقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم خبراً يقينياً صادقًا أتى من السماء ليس فيه ظناً ولا تخرصًا، بل وحياً من الله مباركاً وأمرًا من عنده.

والأصل في استعمال كلمة تعالوا كانت لخطاب أناس كانوا جالسين فأمروا بأن يقفوا أو يرتفعوا ليصبحوا بمحاذاة من يخاطبهم أو في مستواه ليسمعوا الخطاب ويعوه، ثم انتقل استعمالها من هذا الخصوص إلى العموم فأصبحت تطلق للنداء؛ بأن أقبلوا وهلموا، وأما التلاوة: فهي الإخبار بما نزل والتبليغ لأحكام الله، والإخبار هنا في هذه الآيات بما حرم لا بما أحل دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة[1]، وهذا فيه توسعة على الناس بأن تركهم على ما هم عليه من مزاولة أعمالهم وشؤون حياتهم واستثنى منها ما أخبرهم بتحريمه ليجتنبوه، فكان هذا المحرم بمثابة استثناء الجزء من الكل تماماً مثل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾[2]. فاستثنى الجزء من الكل، ويجب أن يكون التحريم صادراً من الشارع الحكيم لا عن الهوى والنفس قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم

---

(١) في الموافقات للشاطبي أن أصل الأشياء إما الإباحة وإما العفو. والعفو: أي الترك.

(٢) آل عمران – ٩٣.

شبكة الألوكة www.alukah.net

مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾(١) وقال أيضاً: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾(٢) وقال أيضاً مبكتاً على من يفعل هذا: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾(٣) فالله سبحانه وتعالى هو العليم بما يحرم وهو الخبير بما ينفعنا وبما يضرنا فله الأمر وله النهي قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾(٤) وذلك بوحي من الله وإخبار منه وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»(٥).

وقد يكون الظلم مدعاة للتحريم قال الله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾(٦) وهم اليهود، فقد حرم عليهم ربهم طيبات كانت حلالاً لهم ومنعهم منها جزاء وفاقاً لظلمهم، ولما بعث الله لهم عيسى عليه السلام رسولاً أخبرهم بأنه سيعيد للأصل بعض ما حرم عليهم ليعود حلالاً طيباً، قال الله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾(٧)

---

(١) يونس ٥٩.

(٢) النحل ١١٦.

(٣) التوبة ٣٧.

(٤) الأعراف ١٥٧.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) النساء ١٦٠.

(٧) آل عمران ٥٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن استعراضنا لآيات التحريم ينحصر التحريم في ثلاثة أمور:

١ - تحريم ما يؤدي إلى الإخلال بالفطرة السليمة وتغيير الاعتقاد.

٢ - تحريم ما يؤدي إلى الإخلال بنظام المجتمع من عادات وتقاليد ومعاملات غير سوية، فهذا النوع والنوع الأول هو ما سنتعرض له من خلال الآيات الثلاث في سورة الأنعام التي نحن بصدد شرح وصاياها.

٣ - تحريم بعض المطعومات والمشروبات.

ففي النوع الأول، نرى التحريم من أجل صيانة النفس عن الكفر والإلحاد وصيانة صاحبها من التعرض لمقت الله وغضبه والسقوط في نار جهنم خالداً فيها أبداً.

والنوع الثاني، لصيانة المجتمع من التفكك والانحلال وتفشي الفوضى وانعدام الترابط والمحبة بين أفراده.

والنوع الثالث، لصيانة الفرد من الأمراض والآفات لتناوله الخبائث، وعن هذا النوع قال ابن القيم: «مشارب تفسد العقول، ومطاعم تفسد الطباع وتغذي غذاء خبيثاً، فصان بتحريم ما حرم من الأطعمة والأشربة العقول عما يزيلها ويفسدها، والقلوب عما يفسدها من وصول أثر الغذاء الخبيث إليها.

ولنعد بعد هذه المقدمة إلى الآية الكريمة، إلى الوصية الأولى ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ لنستنتج من النهي عن الشرك، أن الأصل في عقيدة الإنسان التوحيد، والشرك طارئ على العقيدة حال محلها بسبب مؤثرات خارجية، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[1] وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو

---

(١) الأعراف ١٧٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سبحانه» وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به قال: فيقول: نعم، فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي» فأنت ترى أن الإيمان بالله تعالى هو الأصل وهو الفطرة التي فطر الناس عليها لكنهم بدّلوا وغيّروا في هذه الحياة الدنيا، حيث أغواهم الشيطان وزين لهم الشرك ليبعدهم عن طريق النور، وهذا دأبه بعد أن طرده الله من رحمته، فسخر نفسه للشر ولتكثير أتباعه ليكونوا معه في نار جهنم، وهذه حكايته بعد أن عصى أمر الله تعالى ورفض السجود لآدم، قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾[1].

وفي سورة الحجر قال تعالى يبين إغواء الشيطان للإنسان ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[2] وقد يقول الإنسان كيف يغوي الشيطان وهو لا يُرى ولا نسمع له كلاماً إل آخر ما يقال في هذا ؟

أقول: إن أي فعل يفعله الإنسان يكون فيه مخالفاً لما أمر الله فإنما يكون بوحي من الشيطان، وإن الله تعالى قد سلطه على الإنسان وزوده بقدرة عجيبة لأداء عمله، وبالمقابل فقد زُوِّد المؤمن بسلاح مضاد وهو الإسلام، حيث رسم لنا الطريق الصحيح، فإذا سلكناه وفق هدي الإسلام فلا تأثير للشيطان علينا، فإغواؤه للمسلم الملتزم يكون

---

(١) الأعراف آيات ١٣ – ١٧.

(٢) الحجر آية ٣٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوسوسة لترك الأفضل، فإن أراد الصلاة في المسجد مع الجماعة مثلاً يأتيه خاطر أو وسواس يقول له: الطريق طويلة والجوحار إن كان في الحر أو الجو بارد إن كان في البرد ويظل يوسوس له لكي يؤدي صلاته في البيت وأن عذره في ذلك مقبول، فإن سمع لهذا الهاجس وقعد في البيت يكون قد أطاع رغبة الشيطان دون أن يدري، وإن رفض طاعته وغلب هذا الهاجس بما يعلم من فضل صلاة الجماعة والحث عليها من نبينا الكريم، يكون قد انتصر على الشيطان وهزمه، والشيطان يعود من أبواب أخرى ومرات أخرى وهو في صراع دائم لا يتركه إلى أن يلقى هذا المؤمن ربه، ومع ضعاف الإيمان يكون عمله أسهل، فيغريهم أولاً بارتكاب الصغائر ثم يرتقي معهم إلى ارتكاب الكبائر، وهكذا كلما هدم عروة انتقل إلى غيرها حتى ينسلخوا من الإيمان، فيُحلّوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، فإذا ما وصلوا إلى هذه الحالة أصبحوا من أعوانه وأنصاره، فيسخرهم لإغواء الناس وإضلالهم.

ولنعد إلى الآية الكريمة بعد هذا الاستطراد ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾، إن أول ما يتبادر إلى السامع عند سماعه لهذه الآية هو تحريم الشرك بالله تعالى ويكفيه هذا الفهم، ولكن أهل النحو والغوص على دقيق المعاني وقفوا عندها وقفات تأملية طويلة، وقد أورد صاحب تفسير حاشية الجمل على الجلالين تسعة أوجه في قوله تعالى: ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ومدار هذه الأوجه فيمن عد «أنْ» مفسرة و«لا» ناهية أو «أنْ» حرف ناصب و«لا» زائدة وعلى تأويل المصدر من أن وما بعدها هل هو في محل نصب أوجر أو رفع والمعطوفات التي تلت ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ مثل ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إلى آخر الوصايا العشر ففيها نهي وفيها أمر، فيكف يستقيم المعنى ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إذا كان التحريم منصباً على الشرك فكيف عطف ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾؟ ففي هذا أجهد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلماء عقولهم لتجلية هذه المسألة، فمن أقوالهم[1]: «أنه لما وردت هذه الأوامر مع النواهي، وتقدمهن جميعاً فعل التحريم، واشتركن في الدخول تحت حكمة، عُلم أن التحريم راجع إلى إضدادها، وهي الإساءة إلى الوالدين، وبخس الكيل والميزان، وترك العدل في القول، ونكث العهد» ومنهم من قال هنالك فعل محذوف هو «أوصيكم» فيكون التقدير: أوصيكم ألا تشركوا به شيئًا وأوصيكم بالوالدين إحساناً، وهذا تقدير حسن يدرأ التعارض الظاهر، وكذلك عند من جعل «لا» زائدة – وفي القرآن تعد صلة أدباً مع كلام الله –، وذلك إذا اعتبرنا «أنْ» ناصبة لأنه لو لم تكن زائدة لكان المعنى تحريم عدم الشرك وهذا فاسد، تماماً مثل قوله تعالى: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ** ﴾ «فلا» هنا زائدة وقوله تعالى ﴿ **لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾.

والخلاصة في: ﴿ **أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ كما ذكر في أهم الأقوال اعتبار:

١ ـ «أنْ» مفسرة و«لا» ناهية ولهم الحق في ذلك لأن شروط أن المفسرة مطابق في هذا المقام[2] ولو استبدلت «أن» بـ «أي» لأنها بمنزلتها لكان السياق مقبولاً، أي لا تشركوا به شيئًا، وعليه تكون لا ناهية.

٢ – اعتبار «أن» حرف مصدري ونصب و«لا» زائدة ليكون التحريم منصباً على الشرك، فما فائدة «لا» طالما أنها زائدة؟

أقول: إن الزوائد كلها تفيد التوكيد، «ولا» في هذه الآية وأمثالها تفيد توكيد نفي الشرك وهذا أسلوب بليغ من أساليب العرب، ألا ترى في خطاب الله تعالى وتعنيفه لإبليس بقوله: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ** ﴾ أقوى وأبلغ في بيان امتناعه عن

---

(١) راجع تفسير هذه الآيات في تفسير حاشية الجمل على الجلالين لمزيد المعرفة وكذلك مغني اللبيب عند الحرف لا.

(٢) راجع مغني اللبيب في شروط أنْ المفسرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السجود فيما لو قال له: ما منعك أن تسجد فالأولى أبلغ حيث فيها بيان نفي السجود، وفيها كما قال الزمخشري ينجر معنى آخر مع التوكيد كالتعنيف مثلاً. وكذلك في الزوائد الأخرى، ففي أداة الاستثناء عندما تصبح استثناء مفرغًا ملغياً فإنه يبقى فيها التوكيد والمعنى البلاغي، فقولنا: «محمد رسول الله»، تختلف في المعنى البلاغي والتوكيد عن ﴿ **وما محمد إلا رسول** ﴾، فإنها أفادت الحصر وتوكيد النبوة.

أكبر الكبائر: الشرك بالله من أكبر الكبائر، بل هو أكبرها على الإطلاق قال الله تعالى: « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك، على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة »(١) في هذا يتبين أن الشرك من أكبر الكبائر ولا ينفع معه عمل صالح، ولقد كان مدار القرآن المكي تقبيح الشرك وذمه وحربه بلا هوادة والعمل على الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، حتى إن النبي ﷺ لم يذكر سواه في مكة ويسعى في دعوته لنيل الاعتراف بالتوحيد والانسلاخ عن الشرك، لأنه إن تم له ذلك فإن المهتدي إلى الله يقبل بعدها كل مطالب الإيمان، وقصته مع أبي طالب توضح ذلك، ففي صحيح مسلم « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك فأنزل الله عز وجل ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن** ﴾

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(١) وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(٢) وفي رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، فأبى، فأنزل الله تعالى إنك لا تهدي من أحببت.. الآية» إن الشرك من أكبر الكبائر فلا ينفع المشرك عملٌ صالح ولا استغفار نبي، لذلك قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾(٣) وفي الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: ﴿ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله. فقال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور»(٤)، وفي الصحيح أيضاً عنه ﷺ، أنه سئل أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلفك قيل: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قيل: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك(٥)» فتبين من هذا عظم الشرك، على أنه علينا أن نضع آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾(٦) في الحسبان لنعلم أنَّ غير الشرك وإن قبح في الإثم فإنه دون الشرك فيحتمل أن يغفر الله لصاحب الكبيرة من غير الشرك كما هو مفهوم هذه الآية، ثم لنعلم أن من قال: «لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه دخل الجنة»(٧) كما في الصحيح، فحامل كلمة

---

(١) التوبة: ١١٣.

(٢) صحيح مسلم ص ٢١٤ ج ١.

(٣) النساء ٣١.

(٤) جامع الأصول: ٨٢٢٦.

(٥) صحيح مسلم.

(٦) النساء: ١١٦.

(٧) صحيح مسلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التوحيد لا يخلد في النار إن ارتكب ما يوجب عقابه بها، وفي شرح صحيح مسلم للنووي على هذا الحديث وأمثاله قال: «وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائبًا أو سليماً من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه وحرم على النار» قال: «وإن كان من المخلِّطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه أو بفعل ما حرم عليه فهو في المشيئةلا يقطع في أمره بتحريمه على النار ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة آخراً وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة إن شاء الله عذبه بذنبه وإن شاء عفا عنه بفضله»(١) وفي الحديث الذي يرويه مسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له: عفير، قال: فقال: يا معاذ تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قال: قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»(٢).

فالإيمان هو الأساس في عفو الله عن المقصرين من عباده وأما الشرك فلا ينفع معه عمل صالح ولا ينفع معه حسن الخلق ولا لين الجانب ولا الكلام المعسول ولا الظهور بمظهر المحسن الساعي في الخير أو المنفق في وجوه البر، كما نشهد من أعمال بعض غير المؤمنين أو نسمع عن أخبارهم ومساهماتهم في أعمال الخير، أو نقرأ ما في كتبهم من أخبار وآراء منصفة حول دفاعهم عن المظلومين أو إشادتهم بالحق، كل هذا لا ينفع في الآخرة، لقد اختلط الأمر هذا على بعض المثقفين في التمييز بين المؤمن وغير المؤمن، حيث ادعى بعضهم إيمان تولستوي وغاندي وذلك من خلال ما قرؤوا لهما من بعض المقالات المنصفة أو المواقف العملية التي تميل إلى جانب الحق وحكموا على نجاتهما ودخولهما الجنة، والآية التي سأوردها تبين أنه لا نجاة لمشرك من عقاب النار

---

(١) صحيح مسلم ص ٢٢٠ ج ١.

(٢) صحيح مسلم ص ٢٣٢ ج ١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

والخلود فيها، لأنه لا نفع لعمل الخير مع اعتقاد الشرك أو الكفر، فالشرك جريمة لا تعدلها جريمة، وطالما أن هذين الأديبين لم يصرحا بالإيمان وبقيا على معتقدهما فلا نجاة لهما وهذا ما تحكم به النصوص ولا يغير من حقيقة هذا الأمر دعوى من يدعي عكسه بغير علم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) فإن هذا تهديد للنبي ﷺ ولمن كان قبله من الأنبياء بأنهم إن أشركوا – وهذا من باب ضرب المثل بأعز الناس لبيان عظم هذا الأمر وعدم التساهل فيه – ليحبطن عملهم السابق وما قدموا من جهد فيكون هباء منثوراً، كأنهم لم يفعلوا خيراً قط وتكون النتيجة خسراناً مبيناً، وقال تعالى أيضًا: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ (٢) فهل بعد هذا المثل والتشبيه من قول لقائل؟، فقد حسم الأمر، فأنى لإنسان أن يجمع رماداً في يوم عاصف؟ وعلى هذا فلا تجتمع له الحسنات لأنها لا تجتمع على أساس، كالذي يبني في الهواء، إذاً لا تعد شيئًا، وقال تعالى وذلك لمزيد من البيان والتوضيح: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾(٣) وقال أيضًا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾(٤) وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعة؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي

---

(١) الزمر ٦٥.

(٢) إبراهيم ١٨.

(٣) الكهف ١٠٣ – ١٠٥.

(٤) النور ٣٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خطيئتي يوم الدين»(١) وبالمقابل فإن باب التوبة مفتوح لمن كفر أو أشرك لكي ينيب إلى الله ويتوب ويؤمن به، فتحط عنه ذنوبه السابقة وتفتح له صفحة جديدة، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رجل: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملناه في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»(٢) ومعنى في الإسلام أي: في العهد الذي ظهر فيه الإسلام فالإسلام يجب ما كان قبله، ومما تقدم نجد عظم جريمة الشرك بالله كما نجد بالمقابل مقدار الإيمان بالله وسعة عفو الله لخطايا عباده.

قصة مخيريق اليهودي:

نذكر هذه القصة التي وقعت أحداثها في زمن النبي ﷺ لنتبين منها أن غير المؤمن لا يقبل منه العمل الصالح قال ابن إسحق: وكان - مخيريق - «حبراً عالماً، ورجلاً غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد، وكان يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل فكان رسول الله ﷺ فيما بلغني يقول: «مخيريق خير يهود» وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها»(٣) فالنبي ﷺ لم يقل إنه من أهل الجنة، ولا ذكر في هذا الموقف ما كان يذكره للصحابة عندما كان يبشرهم بالجنة وإنما اكتفى أن قال: «مخيريق خير يهود» فجعله خير بني دينه فقط.

---

(١) جامع الأصول ٢٣٢.

(٢) جامع الأصول ٧٩٨٢.

(٣) ابن هشام السيرة النبوية ص ٨٤٠ج ٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الشرك والكفر متلازمان

الشرك والكفر متلازمان وقد يفترقان بعض الشيء في اللغة، لأن الكفر يعني الجحود والنكران، أي: جحود الخالق ونكران وجوده، أو جحود نعمه ونكرانها، أما الشرك: فهو أن يجعل المشرك لله نداً كالشريك والصاحب والولد أو غير ذلك من الأوثان والأصنام وهذا توضحه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾(١) وفي آية أخرى وردا أيضًا متلازمين لأن محصلتهما واحدة وهي إنكار وحدانية الله تعالى أو إنكار وجوده، وعقابهما واحد وهو الخلود في نار جهنم، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾(٢) وقال أيضًا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٣)

فمن هذا نستنتج أن الشرك والكفر متلازمان وإن اختلف اللفظ فنتيجة كل منهما إلى النار.

---

(١) غافر ٤٢.

(٢) آل عمران: ١٥١.

(٣) التوبة: ١٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعض أهل الشرك

واستكمالاً للموضوع عن الشرك نبين في هذا المقام بعض الوالغين في الشرك سواء اعترفوا بما يصنعون أم أنكروا ذلك، فمن هؤلاء:

أ - اليهود:

من المعروف أن اليهود أقدم من النصارى، وقد تعرضوا عبر التاريخ لمحن كثيرة كما وافتهم أيام رخاء وسعة كبيرة وذلك حسب إيمانهم وتمسكهم بكتاب ربهم فكانوا أهل بلاء وامتحان كلما مالوا عن سبيل الحق والرشاد، وتنوع امتحانهم عبر التاريخ، من امتحان شديد وكرب عظيم كما هو في عهد فرعون وفي غزو بخت نصر لهم، إلى أدنى من ذلك أو أقل، وفي عهود إقامة دول قوية كما هو في عهد طالوت وداود وسليمان إلى عهود الدول الهزيلة، وأوقات الضعف والتشرذم والقطيعة، قال الله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ وقال أيضًا: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾(١).

وكان هذا التبدل في حالهم بسبب ذنوبهم، لذلك توعدهم الله بمزيد من العذاب إن عادوا إلى النكران والعصيان فقال تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾(٢).

وقبل بعث عيسى عليه السلام إليهم، وصلوا إلى حالة من الضلال كبيرة، وبغوا

---

(١) آيات الإسراء ٢ - ٦.

(٢) الإسراء ٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وانقسموا إلى شيع وأحزاب، وغيروا وبدلوا في دين الله، واعتدوا على الأنبياء بالقتل والتنكيل، فكان حالهم بعد أن كانوا خير أمة أخرجت للناس حال شر أمة وأتعس أمة أخرجت للناس، ولقد أملوا بعد تفرقهم بالتجمع تحت راية النبي المنتظر وكانوا يتوعدون من يعتدي عليهم باليوم الذي يظهر فيه النبي المنتظر ليقتلوا الكافرين قتل عاد وإرم، ولكن ما ذا كان موقفهم يوم ظهر وعلموا به وتثبتوا من أمره؟ أضلهم الشيطان عن الحق وعن اتباع هذا النبي بغياً وحباً للدنيا وكرهاً للعرب، ولطبيعة في نفوسهم من حب الدنيا وشهواتها والانعتاق من كل التزام يشيع الحياة الكريمة في ظل قوانين الله العادلة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١)

وقال أيضًا في السورة نفسها: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٢)

فهذا دليل صريح على كفر هؤلاء زد على ذلك؛ أقوالهم واعتقادهم في الله ما لا يكون، وقد أخبر الله عنهم في كتابه فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٣) وقالوا أيضًا: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾(٤).

فأي شيء أكبر عند الله من أن يجعلوا له شريكاً أو ولداً أو نداً؟!

أو أن ينتقصوا من صفاته، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) البقرة: ١٠١.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) التوبة ٣٠.

(٤) المائدة: ٦٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد بين النبي ﷺ الطريق الذي يجب أن يسلكه أهل الكتاب ليكونوا على هدى، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١) وبالمقابل فقد أجزل الثواب لأهل الكتاب إذا آمنوا، ففي الحديث الذي يرويه مسلم قال: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران)(٢).

لكن طبيعة اليهودي تأبى أن تكون سوية إلا ما ندر منهم، فلو تتبعنا تاريخهم منذ بُعث موسى رسولاً إليهم إلى بقيتهم من يهود المدينة لرأيناهم يحومون مراراً حول الشرك ويقعون فيه، فبعد نجاتهم من فرعون مصر وعبورهم البحر رأوا أقواماً يعكفون على أصنام لهم فقالوا لنبيهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(٣) ولما وعظهم وبين لهم خطأ ما يقولون وأن هؤلاء الذين يعكفون على الأصنام في درجة منحطة من التفكير: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤) أي مكسّر ما هم فيه ومهلك لهم، أما أنتم فتسمون عليهم بعلمكم وعبادتكم لله الواحد، ولكن هذا لم يفدهم شيئًا، بل استغلوا فرصة غيابه لتلقي الألواح فصنعوا عجلاً وعبدوه، كما أنهم لم يكونوا أهل صبر في الدعوة، فنفسهم في ذلك قصير يرضون بالذل والعبودية تحت أقسى الظروف وأشدها تأثيراً على الدين والعرض وعلى البذل والجهاد والتحمل قال الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

---

(١) رواه مسلم ج ٢ ص ١٨٦.

(٢) رواه مسلم ١٨٨ ج ٢.

(٣) الأعراف ١٣٨.

(٤) الأعراف: ١٣٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فقالوا لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ (١)

ولما طلب منهم قتال أهل أريحا ليفتحوا البلد ويكونوا عليها سادة رفضوا ذلك: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(٢) ولما وصل حالهم إلى الكفر وقتل الأنبياء سلط الله عليهم ذلاً وتشرداً إلى يوم القيامة قال الله تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(٣) وتذكر كتب التاريخ المحن التي تعرض لها اليهود ففي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد غزاهم «بوخت نصر» واستولى على بيت المقدس، ودمر الهيكل وتشردوا وفر قسم منهم إلى اليمن وفي سنة ٧٠ ميلادي دمر «تيتوس» الروماني أورشليم القدس وتفرق اليهود وفي ما بين سنوات (١١٧ – ١٣٨) أيام حكم الامبراطور الروماني «هدريان» مر اليهود بأقسى المحن وأشدها، حيث قضي على اليهود ككيان سياسي في فلسطين وغير اسم المدينة المقدسة «القدس» إلى «إيليا» وحول المعبد اليهودي إلى معبد روماني سماه «جوبيتر» وبيعت النساء اليهوديات إماء، وضاع اليهود في غياهب التاريخ ومن هؤلاء يهود يثرب، وهؤلاء أيضًا، أخرجهم المسلمون من المدينة بعد أن استفحل شرهم وظهر للعيان كفرهم.

كل هذا القهر والضياع والذل كان بسبب كفرهم فأصبحوا الشعب البغيض في كل مكان بعد أن كانوا الشعب المفضل على العالمين.

ب – النصارى:

والنصارى حرفوا دين عيسى عليه السلام الذي أتاهم به من عند الله، قال الله

---

(١) الأعراف ١٢٨ – ١٢٩.

(٢) المائدة ٢٤.

(٣) البقرة ٦١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(١)

وهذه المساءلة من الله تعالى لعيسى عليه السلام تبين أن قومه هم الذين بدلوا وحرفوا في دعوة عيسى عليه السلام وأن عيسى عليه السلام أقر بأنه أخبرهم بالذي أخبره الله به، بأن الله واحد لا شريك له، وهذا مبين في خطابه لقومه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢) وقال لهم أيضًا ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾(٣) وقال لهم أيضًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾(٤) فماذا ادعوا هم كذبًا وافتراء؟!

لقد جعلوا الإله ثلاثة، الأب والإبن وروح القدس، فأخبر الله بكفر هذه الفئة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾(٥) وقال أيضًا عن الذين ادعوا أن عيسى هو الله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(٦).

لذلك فإن دعوة الإسلام لأهل الكتاب هي من أجل تجديد إيمانهم، وتصحيح عقيدتهم قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٧).

---

(١) المائدة ١١٦.

(٢) المائدة ١١٧.

(٣) مريم ٣٠.

(٤) آل عمران ٥١.

(٥) المائدة ٧٣.

(٦) المائدة ٧٢.

(٧) آل عمران ٦٤.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

جـ - المنافقون:

فئة ظهرت في المدينة وشجع اليهود على نموها وتفريخها؛ داعمين إياها بالمال والتأييد وهذه الفئة مكرت أشد المكر بالمسلمين، محاولة توهينهم وزعزعتهم من الداخل، أي من داخل الصف، وسيلتها في ذلك إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، وذلك ليتمكن هؤلاء من التغلغل في صفوف المسلمين، والتعرف عليهم على أنهم إخوة لهم، ثم بث الفرقة والأكاذيب بينهم والوشاية والنميمة والتحريض والتهييج بعضهم على بعض، وقد وقف النبي ﷺ حيال هذه الفئة موقف الناصح لهم، والمرغب لهم بالإخلاص وترك ما هم عليه، وبالتهديد بالعقوبة في الآخرة لعلهم يرتدعون وينزجرون لأنه لا يريد أن يقاتلهم بتهمة النفاق، فيعود ذلك بالضرر على سمعة المسلمين حين يشاع بأن محمداً يقتل أصحابه، فهم في الظاهر مسلمين ولا يدرك الباطن والسرائر إلا الله، ومع أن الله سبحانه وتعالى أطلقه عليهم وعلى مؤمراتهم إلا أن النبي ﷺ لم يستعمل السيف ضدهم لما قدمنا، ولئلا يكون ذلك ذريعة للمسلمين من بعده بالقتل على الشبهة أو على التهمة بالنفاق، وربما يؤدي ذلك إلى قتل أناس بهذه التهمة وهم برآء منها، فماذا فعل المنافقون حتى استوجبوا النار؟

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(١) فقد أخبر الله أنهم غير مؤمنين رغم قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر، ثم بين في الآيات التالية بعض صفاتهم الأخرى وذلك حتى الآية ١٦ من البقرة حيث قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٢)

---

(١) البقرة: ٨.

(٢) البقرة ١٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بعض ما عملوه في المدينة ضد المسلمين:

كان زعيمهم في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول، كان يعد سيداً في قومه حتى إنهم أجمعوا على تتويجه ملكاً على يثرب قبل هجرة النبي ﷺ وقد فشل هذا المشروع بدخول أهل المدينة في الإسلام حيث بدلهم الله سبحانه وتعالى بالظلام نوراً، فالتفوا حول النبي ﷺ، وهنا أخذت هذا المنافق العزة بالإثم فعمل على الكيد للإسلام والمسلمين، رغم أن النبي ﷺ قد رفع مكانته وقدره، إلا أنه كان كثير الغدر ينتظر الفرص للوثوب على المسلمين أو لإحداث فتن لشق الصفوف.

في غزوة بني قينقاع:

لما نقض بنو قينقاع العهد مع النبي ﷺ ثم أتبعوا ذلك بالاعتداء على المرأة المسلمة، حاصرهم النبي ﷺ فنزلوا بعد خمسة عشر يومًا على حكمه، فشد وثقاهم، فأقبل عبد الله بن أبي بن سلول ليشفع لهم عند النبي ﷺ وكان هو الذي عصّاهم وأمرهم بالتحصن والوقوف ضد النبي، لكن الله قذف في قلوبهم الرعب ونزلوا على حكم النبي ﷺ، فجاء ابن سلول ليفكهم فمنعه الحرس من ذلك قال الواقدي: «فوثب ابن أبي إلى النبي ﷺ فأدخل يده في جنب درع النبي ﷺ من خلفه فقال: يا محمد أحسن في موالي فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان متغير الوجه فقال: ويلك أرسلني، فقال: لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر منعوني يوم الحدائق ويوم بعاث من الأحمر والأسود، تريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟ يا محمد إني امرؤ أخشى الدوائر، قال رسول الله: خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم»(١)

فأنت ترى جفاءه وغلظته مع النبي ومناصرته لليهود أعداء الإسلام، كما تلاحظ خطابه للنبي باسمه لا بالرسالة، وكان يريد أن يحرك بهذه الحادثة قومه من الخزرج

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لكي يحصل قتال وانشقاق، لكن النبي ﷺ فوت عليه هذه الفرصة.

في غزوة بني النضير:

وهم يهود بني النضير الذين نقضوا العهد وتآمروا على قتل النبي ﷺ وهو جالس مع نفر من أصحابه تحت ظل جدار لبيت من اليهود ينتظر منهم أن يحضروا له دية لرجلين قتلاً من قبل حليف لهم، فقالوا له: انتظر وسندفع لك، فأرسلوا عمرو بن جحاش ليلقي عليه حجراً أو رحى، فأخبره الله بالوحي فغادر المكان مسرعاً، ثم أرسل إليهم بالجلاء عن المدينة ووجدوا أنه لابد لهم من ذلك وإلا حاربهم النبي ﷺ، وأعطاهم النبي ﷺ مهلة عشرة أيام لكي يخرجوا بأموالهم ومتاعهم، وبينما هم يتجهزون للخروج منصاعين، أتاهم الخبر من ابن سلول يقول لهم: «لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة وغطفان».

وهكذا منّاهم الأماني في البقاء والعصيان على أمر النبي ﷺ فقام حيي بن أخطب زعيم بني النضير وأرسل إلى النبي: إنا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع.. فكبر النبي ﷺ وقال: حاربت يهود، وانطلق لحصارهم، وكان جلاؤهم.

في غزوة المريسيع:

ظهر في هذه الغزوة حقده الدفين على الإسلام ونبي المسلمين، وحدث على ماء المريسيع بعد أن انقطعت الحرب، أن اختلف «سنان بن وبر الجهني وهو حليف لبني سالم من الأنصار، وجهجا بن سعيد الغفاري وكان مولى لعمر بن الخطاب فلطم جهجا سناناً فشجه فنادى سنان يا آل خزرج ونادى جهجا يا آل قريش يا آل كنانة، وشهروا السلاح وكادت تحصل فتنة عظيمة ثم هدأت الأمور وكلم سنان أن يتنازل عن حقه ويعفو ويصفح وألا يرفع الأمر إلى النبي ﷺ فقبل، وبلغت هذه الحادثة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أبي بن سلول فلم يشأ أن تحل بهذه الحكمة بل أراد أن تكون ناراً تشب بين الفريقين ثم قال: «ما رأيت كاليوم مذلة، والله إن كنت لكارهاً لوجهي هذا ولكن قومي غلبوني وقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلدنا وأنكروا منّتنا، والله، ماصرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل «سمن كلبك يأكلك».

ثم يقول: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

وسمع زيد بن أرقم هذا الكلام فغضب من ابن أبي وقام فنقل الكلام للنبي ﷺ، وكره النبي أن يسمع مثل هذا الكلام وقال له: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا والله، لقد سمعته منه، قال: لعله أخطأ سمعك قال: لا يا نبي الله، قال: لعله شُبّه عليك، قال: لاوالله لقد سمعته منه يا رسول الله، وأسرع عدد من كبار الأنصار إلى أبي بن سلول يستفسرون ويؤنبونه على قوله ويطلبون منه الاعتذار أمام النبي والتوبة، فأنكر ذلك وحلف أنه لم يقل شيئًا، ولو أنه اعترف لاستغفر له رسول الله، لكنه أصر على كذبه واتهم زيد بن أرقم بنقل الكلام كذبًا، لكن صدق زيد، فقد نزل قرآن يتلى بهذه الحادثة وظهر كذب ابن سلول للجميع وظهر نفاقه ونزلت مرتبته أمام الناس لأن الشريف عندهم لا يكذب، فقد كذب وأصبح بمرتبه الوضيع، لقد نزلت سورة «المنافقون» وهم عائدون من المريسيع تذكر خبر ابن سلول فلما سري عن النبي ﷺ أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعها وهو يقول: وفت أذنك يا غلام وصدّق الله حديثك.

قال الله تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

---

(١) المنافقون ٧ – ٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في غزوة أحد:

شاور النبي في هذه الغزوة أصحابه في لقاء العدو في أحد أو في التصدي لهم في المدينة وكان الرأي السائد أن يخرجوا لملاقاة العدو في أحد، وانطلق الجيش إلى أحد وفي الطريق انسحب ابن سلول بثلث الجيش وذلك ليفل من عزيمة المسلمين وليعطي المبرر لمن بقي بالهزيمة، ولما اشتد القتال أشاعوا أيضًا مقتل النبي لتوهين العزائم، ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم وحمى الله نبيه والمسلمين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١)

في غزوة الخندق:

لما ضاق على المسلمين ما هم فيه من حصار قريش وحلفائها، ومن نقض يهود بني قريظة العهد، نشط المنافقون أيضًا في المدينة ونشروا الشائعات والأكاذيب حتى يزلزلوا ثبات المؤمنين، وتكاثر الأعداء من الداخل والخارج يريدون القضاء على المسلمين واستئصالهم، وتدخلت إرادة الله فبعث جنده ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وكان النصر وكان انكشاف المنافقين أيضًا انكشافاً جلياً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ

---

(١) التوبة ٤٦ – ٤٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله (١)

بناء مسجد الضرار:

وزيادة في المكر والإيذاء تفتق ذهن المنافقين عن بناء مسجد، يكون ظاهره للعبادة وباطنه للاجتماع والتآمر على الإسلام والمسلمين، وليكون مرصداً لحركات المسلمين ووكراً للمنافقين يجتمعون فيه ويقررون فيه مخططاتهم الخبيثة، لذلك أخبر الله نبيه عن حال هذا المسجد وسماه مسجد الضرار قال الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾(٢)

وفي أثناء عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك أمر بعض أصحابه بتحريق هذا المسجد وإبطاله.

المنافقون يستهزئون بالمسلمين داخل المسجد:

وبلغ من خبث المنافقين وتجرئهم على المسلمين أنهم دخلوا مسجد النبي ﷺ والتفوا حول بعضهم وبدؤوا يتغامزون على المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم، فرآهم النبي ﷺ يتحدثون فيما بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفًا، حيث قام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد، وكان عمرو بن قيس يصرخ ويقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ – حيث كان المسجد مربداً واشتراه رسول الله وأقام عليه المسجد، ومن نفاقه لا يعترف بأنه مسجد بل يسميه باسمه الذي كان عليه – ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة فلببه –

---

(١) الأحزاب آيات: ٩ – ١٤.

(٢) التوبة ١٠٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أي أخذ بتلابيبه – بردائه ثم نتره نترًا شديدًا ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد وكان أبو أيوب يقول له: أف لك منافقاً خبيثاً، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ – أي ارجع من الطريق التي أتيت منها وإياك أن تعود إلى المسجد – وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه فلدمه بها في صدره لدمة خر منها – واللدم الضرب ببطن الكف – فقال المنافق: خدشتني يا عمارة قال عمارة: أبعدك الله يا منافق فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ. وقام أبو محمد وهو من بني النجار وكان بدرياً وهو مسعود بن أوس، إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلاماً شاباً وكان لا يُعْلم في المنافقين شاب غيره، فجعل أبو محمد يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد.

وقام رجل من بني خدرة رهط أبي سعيد الخدري يقال له: عبد الله بن الحرث إلى رجل يقال له: الحرث بن عمرو وكان ذا جمة، فأخذ بجمته فسحبه سحباً عنيفًا على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد، وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيّ بن الحرث فأخرجه من المسجد: إخراجاً عنيفاً.

فكان هذا حال المسلمين مع المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر والحقد والكيد للمسلمين، فكانوا من شدة حقدهم يطفون على السطح ويبدون رؤوسهم الماكرة، خصوصاً إذا مر المسلمون بأوقات عصيبة كيوم الخندق ومن هذا الظهور كانوا يعرفون، وقد أطلع النبي ﷺ حذيفة بن اليمان على أسمائهم وذلك قبيل وفاته ليعلمهم ويراقبهم لخطرهم على المسلمين ويكفي للتدليل على كفرهم ما ورد في القرآن الكريم بشأنهم قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(١)

الشرك ضلال وتيه

لا يوجد أضل من المشرك، فهو ضائع تائه مضطرب التفكير لا يستقر على حال وتراه في الأمور المهمة لا يستطيع أن يقطع فيها برأي صائب، يتصرف بوحي من شيطانه فيزداد عمى وتيهاً، يقف عاجزًا في النقاش الفكري فيشعر بفشله وضعفه لذلك يجد أسرع وسيلة للتخلص من هذا النقاش والظهور بمظهر المنتصر أن يأمر بقتل خصوصه والتخلص منهم، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وهذا مشاهد فيما مر من سير الطغاة، فقد استحوذ عليهم الشيطان وملكهم وسيّرهم لخدمته وهم الذين نفذ فيهم وعيده، فسخرهم للضلال وملك عليهم لبهم وسمعهم وبصرهم فما عادوا يستطيعون منه فكاكاً، إنما الفكاك من الشيطان للذي يلجأ إلى الله ويستعيذ به منه، أما هم فقد لجؤوا إلى الشيطان واعتصموا به فسخرهم الشيطان لمآربه ورمى بهم بني جلدتهم من البشر فطغوا وافتروا وأتوا بكل قبيح ومنكر، وأعظم من هذا كله كفروا بالله وألّهوا أنفسهم أو شياطينهم قال الله تعالى يبين شدة أسر الشيطان لأتباعه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾(٣) وهؤلاء الذين ينساقون وراء الشيطان إنما هم من ضعاف الإيمان الذين مرضت قلوبهم قال الله تعالى ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

---

(١) المنافقون ١ – ٣.

(٢) الأنعام ١٢٥.

(٣) الحج ٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قلوبهم ﴾[1] فمثل هؤلاء استحوذ عليهم الشيطان وسيطر عليهم سيطرة كاملة لا انفكاك منها، لأن قلوبهم قست وماتت، قال الله تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[2] وهؤلاء الذين تعلقوا بالشياطين أصبحوا خانعين لأن يستغلهم الشيطان أشد الاستغلال ويسخرهم ليل نهار ليؤدوا مهمتهم فلا يعطيهم راحة ولا يقيم لهم هدنة، إنما دأبه استمرار أتباعه في الإغواء والإضلال، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[3] والطامة الكبرى أن يستسلم الإنسان للشيطان، ثم يرى نفسه أنه محق أو أن تصرفاته كلها صواب، وأن غيره مخطئ، فبهذا الاستسلام يكون قد سلم نفسه للشيطان دون أدنى اعتراض وأصبح يتصرف بوحي منه، فلا يعترض على الخطأ مهما كان بل يراه صواباً، وقد وصف الله هذا الصنف فقال: ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[4].

نماذج من التيه والضلال:

١ – بين إبراهيم عليه السلام والنمرود.

ذكر الله سبحانه وتعالى ما جرى من نقاش بين إبراهيم صلوات الله عليه وبين الطاغية نمرود، فقد ادعى نمرود الألوهية وزعم القدرة على كل شيء، فقال له إبراهيم يبين له قدرة الخالق الحق: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾، فما كان من نمرود الذي تاه في الضلال والعمى إلا أن خذ له تفكيره وانحط به إلى الحضيض فقال: ﴿ أَنَا أُحْيِي

---

(١) الحج ٥٣.

(٢) المجادلة ١٩.

(٣) الأنعام ١٢١.

(٤) الأعراف ٣٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿وأميت﴾ وبرهن على ذلك باقتراف جريمة منكرة فقتل شخصاً وقال: أمته، وعفا عن آخر كان يريد قتله وقال: أحييته!

هذا المستوى من التفكير لا يحصل من طفل صغير لأن صاحب الفكر السليم عندما يسمع بأن الله يحيي ويميت، يتبادر إلى ذهنه السليم قصة الحياة ابتداء من العدم وإيجاداً بكلمة كن، فيكون حياً، وكن ميتًا فيكون ميتًا أو تكون في القدرة على الإحياء بعد الإماتة الفعلية، كما في طلب إبراهيم من ربه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾(١)

وهكذا رأى إبراهيم الطيور التي ذبحها بيده وخلط أجزاءها بعد تقطيعها ثم نثرها فوق الجبل في أماكن متفرقة، ثم دعاها فأحياها الله وأتته تطير كما كانت من قبل، أما النمروذ صاحب التفكير المسلوب والتصرف الأحمق فقد أراد أن يميت حياً ويحيي حياً فكان عرضة للسخرية والضحك والاشمئزاز، ولما رأى إبراهيم مبلغ حمقه نقله نقلة لا يستطيع أن يؤذي فيها أحداً وهي أشق من الأولى، فقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، وهنا أسقط في يده ووقف حائراً، فغضب وطرد إبراهيم وظل في غيبوبته وسكره مع شياطينه. فهذا نموذج على مبلغ تفكير المشرك إنه تفكير منحط، فبمجرد أن يكفر الإنسان أو أن يتنكر لخالقه فإن الله سبحانه وتعالى يسلبه تفكيره السوي، فيفكر بإرادة مسلوبة وبسطحية تدعو للسخرية، ويدبر للأمر فيأتي على عكس ما دبر وخطط.

---

(١) البقرة ٢٦٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فرعون وبنو إسرائيل:

وأما فرعون فليس بأحسن حظًا من نمرود، كلا هما ادعى الألوهية وكلاهما وقع في شر تفكيره.

أ – أخبره الكهنة بأن ملكه سيقوض على يد رجل من بني إسرائيل سيولد في هذا العام، فما ذا صنع؟ هداه تفكيره السقيم اللا مسئول إلى قتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل، وهكذا يدفع الشعب المقهور الثمن للحفاظ على عرش ملك طاغية يحكمهم، ولو كان مؤمناً يخاف الله لما فعل ذلك ولما أراق قطرة دم حرم الله إراقتها، فكان تدبير الله أقوى فحفظ موسى وسلمه ،وجعله يعيش في كنف فرعون وفي منزله، وكانت نهاية فرعون على يد هذا النبي، ولم ينفعه ما دبر وخطط لأن تدبيره وتخطيطه من عقله الضال المنحرف المشرك، ومثل هذا العقل لا يهدي إلى رشد.

ب – قصته مع موسى بعد أن أصبح نبيا وجاءه بالبينات والمعجزات الباهرة التي تقطع بصحة نبوته، فلما رأى العصا تنقلب ثعباناً، دعاه إلى المنازلة علناً أمام الناس، وهنا يقع فرعون في قبح تدبيره وتخطيطه، ويعجز عقله عن التفكير السوي، فأي دعوة علنية هذه التي فكر فيها الطاغية وهو يرى معجزة موسى الباهرة، وأي ثقة هذه التي كان يثق فيها بسحرة بلاده حتى يدعو إلى المنازلة أمام الملأ، إنه التفكير المريض، فكيف يشرح الله قلبه لتفكير سوي وهو الذي يحارب الله ورسوله؟ وهو الذي جعل نفسه نداً لله! فكان تدبيره في تدميره، لقد اكتشف سحرة فرعون أنهم على خطأ وأن فرعون ضال مضل، كما اكتشفوا صدق دعوة موسى وأن عصاه معجزة إلهية خارقة لا يقف السحر أمامها، فلما وصلوا إلى هذا اليقين أعلنوا إسلامهم أمام الملأ، فكانت التظاهرة التي أقامها فرعون صفعة قوية له، خاب وخسر فيها أمام جنده وحشده وأتباعه ونصر الله موسى، فما كان منه إلا أن غضب لخسارته، فارتكب حماقة أخرى من حماقات ضلاله، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ساجدين (١٢٠) قالوا آمنا برب العالمين (١٢١) رب موسى وهارون (١٢٢) قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (١٢٣) لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ (١).

وفي سورة طه أخبرنا الله تعالى عن موقف السحرة الذين عاندوا فرعون بقوة إيمانهم قال تعالى: ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٢)

وهكذا فإن ضلال فرعون وكفره دفعاه إلى الجريمة، فقتل رجالاً قالوا ربنا الله.

قوم صالح وطيش عقولهم:

دعا صالح قومه ثمود إلى عبادة الله ونبذ الشرك، وذكرهم بنعم الله عليهم ثم برهن لهم على صحة نبوته بمعجزة خارقة، وهي ناقة الله التي خرجت من الجبل فكانت تشرب ماءهم يومًا وتعطيهم مقابله حليبًا، وتدع لهم الماء يومًا، وأوصاهم صالح ألا يمسوها بسوء، لكن زعماء القوم والمتجبرون فيهم تآمروا على قتلها، لأنها معجزة السماء وهم لا يريدون معجزة قائمة تزيد من عدد المؤمنين، لقد امتلأ قلبهم كفرًا وبغضاً لصالح وللمؤمنين، فكانوا يعاندون المؤمنين من قومهم ويتحدونهم بإعلان الكفر قال الله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾(٣)

---

(١) الأعراف ١١٧ – ١٢٤.

(٢) طه ٧١ – ٧٣.

(٣) الأعراف ٧٥ – ٧٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يكتفوا بهذا التحدي بل هداهم فكرهم الضال إلى قتل الناقة، وهو فكر مائل منحرف لا يهدي إلى حق أو رشد، فمالهم وللناقة، إنما الحقد والغيظ من نبي الله صالح فأرادوا أن ينتقموا من معجزة تؤيده، إنهم يعلمون صدقه ولكنه العناد والشيطان الذي زين لهم باطلهم، ومن شدة جهلهم وسوء تفكيرهم وتدبيرهم قتلوا الناقة ثم استعجلوا العذاب، هل هذا تفكير سوي؟! ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[1] وهكذا قادهم تفكيرهم إلى الخطأ، فبدل أن يندموا على ما فعلوا ويطلبوا الصفح، استعجلوا العذاب فأتاهم العذاب: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[2].

نموذج كفار مكة:

لقد تخبطوا في ضلال وتيه، فلم يسعفهم ذكاؤهم المعهود، ولا قوة ذاكرتهم لاتخاذ قرار حكيم، بل إن شيطانهم وفكرهم الذي ضل وانحرف زاد في عمايتهم وضلالهم، ووقفوا من الدعوة موقف المعاند، ليس معهم أدنى حق ولا يؤيدهم منطق سليم، بل قادهم فكرهم إلى اتخاذ مواقف مضحكة من الدعوة، ندرك من خلالها ما وصولوا إليه من غباء في الفكر وبعد عن التصرف السوي، فهذا الوليد بن المغيرة صاحب الرأي والمشورة في قريش يقترح على قريش أن تأخذ موقفاً موحداً من النبيﷺ في موسم الحج، فيقول:(يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول: كاهن،

---

(١) الأعراف ٧٧ – ٧٨.

(٢) هود ٦٥.

شبكة الألوكة www.alukah.net

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه وسوسته قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟! قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وأن فرعهُ لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأَنْ تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته).

لقد عرف الحق ورد كل قول قالوه، لكنه لما أصر على الضلال والكفر أصدر حكماً كان قد رده سابقًا وهو السحر، فعاد حكمه ليرينا ضلال رأيه وتيهه.

وكان الأولى بعد نفي كل الصفات الشائنة أن ينصف في الحكم ويقول: نبي، لكن عقله الذي ركب هواه خانه في الحكم فَضَلّ وتاه. وقد بين الله في كتابه ضلال هذا الرجل وفكره المريض بعد أن آتاه الله المال والجاه، لكنه ضل في الحكم وذلك لضلال فكره وعقيدته، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(١)

---

(١) سيرة النبي – ابن هشام ص ٢٨٣ ج ١.

(٢) المدثر ١١ – ٢٥.

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net

وهناك وقائع كثيرة ظهر فيها ضلال قريش وتخبط عقولها في التيه، وعدم المقدرة على اتخاذ الموقف المناسب حتى في أحلك الساعات بالنسبة لها، وذلك يوم دخول النبي ﷺ مكة بعشرة آلاف مقاتل، أرادوا المقاومة مضيعين فرصة الأمان الممنوحة لهم، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو أمن.

ضلال اليهود في المدينة:

ورد في كتاب سيرة النبي لابن هشام «أن صفية بنت حيي بن أخطب قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»(١). هذا هو العقل الضال الذي رأى أمامه الحقيقة واعترف بها ثم أراد أن يقادم النور والحق وهو يعلم مما قرأ في التوراة أنه ظاهر منتصر، فأي حمق وأي ضلال أن يقف في وجه الدين الجديد الذي أخبر الله عنه أنبياءه من قبل أنه ظاهر منتصر، إنه مشكلة العقل الجاحد والفكر المشرك الذي لم يسعف صاحبه في الوقت المناسب، وقت الحاجة إليه، فأعماه عن طريق الحق والنور وليّس عليه الأمر بعد معرفته ونصوعه، فسار معانداً في طريق الضياع.

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ص ١٤١ ج ٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net
الدخول على شبكة الألوكة

أما كان الواجب عليه أن يؤمن؟ وهو الذي قرأ التوراة وعرف صفات النبي المرسل وأقسم في خلوته مع أخيه أنه هو هو، وأنه يعرفه ويثبته، فلماذا وقف ضده؟ إنه الضلال والعقل المظلم الذي خانه في الوصول إلى النور، وكانت عاقبة ذلك ذل له ولقومه وإخراج لهم من المدينة مطرودين منبوذين، ثم ما لبث أن قتل بعد استسلام بني قريظة لأنه كان السبب في نقضهم للعهد وتحريضهم على العدوان.

الإيمان هدى ونور:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

إن الإيمان هدى ونور، فالمؤمن منفتح القلب منفتح البصيرة، ينظر بنور الله، فراسته قوية وذهنه حاضر متوقد، لماح يدرك الأمور بجلاء، إن جلس إليه أحد يحدثه بصدق وإخلاص عرف ذلك فيه، وإن جلس إليه أحد يرائي وينافق عرف ذلك فيه، ففي قسمة غنائم هوازن نظر ذو الخويصرة التميمي إلى النبي ﷺ وقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال عليه الصلاة والسلام: «إن لم أعدل فمن يعدل؟» فعاد هذا المارق وقال: «هذه قسمة ما أريد بها وجه الله» معترضًا على النبي ﷺ ناسيًا وجوب طاعته، فنظر إليه النبي ﷺ فرأى فيه قسوة القلب وتصرف شيطان مريد لا يكاد يختلف عن إبليس في الجحود والاستكبار والعصيان، فقال النبي ﷺ: «سيخرج من ضئضئ – أي من جنسه ونسله – هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..»(٣) فكان من ضئضئه الخوارج.

---

(١) آل عمران ١٠١.

(٢) آل عمران ٨٦.

(٣) عن سيرة النبي لابن هشام ص ١٤٤ ج ٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net

والنبي ﷺ رسول موحى إليه ملهم مسدد مبارك، لا يرقى لنور إيمانه راق، فهو سيد الأولين والآخرين، سيد ولد آدم، ﷺ.

أبوبكر الصديق:

ليس هذا المجال لذكر صفات أبي بكر رضي الله عنه وفضائله، ولكن سأذكر أموراً مهمة في حياة أبي بكر هدى الله فكره إليها، ونور بصيرته في عملها، وهي تعد دليلاً على من ملأ الله قلبه بالإيمانهم ويوفقه ويهديه الله تعالى لأخذ الرأي الصائب فيها.

ففي اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ؛ طاش الناس وفتروا وأصبحوا كالأيتام الصغار الذين فقدوا عائلهم، وكانوا بحاجة إلى رجل مثل أبي بكر، فرغم رقته ولينه المعهودين؛ إذابه يظهر في هذه الساعة المهمة رجل الموقف وتبدو منه صلابة وجرأة ووعي وفكر لا يجارى في اتخاذ المناسب من الإجراءات والتدابير، ضعف عمر في هذا الموقف رغم شدته المعهودة وتضاءل أمام أبي بكر، فدخل رابط الجاش إلى النبي ﷺ ونظر إليه وهو مسجى فقبله وقال: بأبي وأمي يا رسول الله طبت حياً وميتاً، ثم خرج يقول: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1] فالتف حوله الصحابة، وحتى لا يتفرق المسلمون سارع إلى سقيفة بني ساعدة إلى الأنصار الذين كادوا يبرمون أمراً بتولية زعيم منهم – عن حسن نية – من أجل إنقاذ الموقف، فخطب فيهم وأقنعهم بأن الأئمة من قريش، وبويع رضي الله عنه ووقى الله المسلمين من شر انقسام خطير، ولما ارتدت القبائل وقف بحزم من هذا الأمر واتخذ قرارات صائبة بوحي من إيمانه المشرق الفياض، وجهز الجيوش إلى المرتدين

---

(١) آل عمران ١٤٤.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الله عن للنبوة، وإلى مانعي الزكاة، فكانت وقفة أعادت للإسلام كيانه وقوته، وظهر من وصاياه في الحرب والقتال أمور تشهد له بالبراعة العسكرية، فكانت توجيهاته عاملاً مهماً من عوامل النصر، ولما أرسل عكرمة بن أبي جهل لقتال مسيلمة أمره ألا يخوض معه قتالاً إلا بعد أن يصل إليه المدد والقادة، وألا يتسرع بالهجوم على مسيلمة، لكن شجاعة عكرمة أبت عليه الانتظار فصادم مسيلمة لكنه هُزم، فأرسل إليه أبوبكر رسالة معاتبة وأمره ألا يُري جيش المسلمين القادم نفسه حتى لا يتأثروا بما حدث وتضعف قواهم، بل أمره بالتوجه إلى مناطق عمان ليقضي هنالك عن بعض شراذم المرتدين ومنعه من المشاركة مع خالد بن الوليد في قتال مسيلمة.

وفي فتوح الشام والعراق وجه القوات المتمرسة في القتال إلى دولتي الروم والفرس وذلك بعد هزيمة المرتدين واستسلامهم مباشرة، وأعجز الروم في دخول أربعة جيوش من طرق مختلفة فأوقع في صفوفهم الارتباك والوهن، ولما اطلع على خطة الروم القاضية بتجميع جيش كبير وصدم هذه الجيوش الصغيرة، أمرهم بالتجمع وتوحيد القيادة وأرسل إلى سيف الله خالد في العراق يستقدمه لحرب الروم وتولي القيادة العامة في هذه المعركة الكبيرة، وكان النصر بإذن الله في اليرموك، ولبيان شفافية فكر أبي بكر وتنور قلبه وبصيرته ما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله ﷺ وقال: «إن الله عز وجل خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عنده، قال: فبكى أبوبكر - وفي رواية مسلم فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا - فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبوبكر هو أعلمنا، وقال رسول الله ﷺ: إن من أَمَنِّ الناس علي في صحبته وماله أبابكر ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبابكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»(١) رواه البخاري.

---

(١) جامع الأصول / ٦٤٠٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net

فلم يلحظ أحد من الصحابة ما لاحظه أبوبكر، بل مر عليهم الكلام وكان النبي ﷺ يخبر عن غيره. وفي رواية الترمذي «فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده وهو يقول – أي أبوبكر – فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان النبي هو المخير وكان أبوبكر أعلمنا به».

عمر بن الخطاب

الرجل الذي كان قبل الإسلام معروفاً بقسوة القلب وغلظ الطبع، إذا به بعد أن أشرق قلبه بنور الإسلام يصبح عبقرياً ملهماً، وقد شهد له النبي ﷺ بقوة الدين والعبقرية، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: بينما أنا نائم رأيتني على قليب – بئر – عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً – الدلو العظيم – أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غَرْباً – الدلو العظيمة – فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريًا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن – مكان تناخ فيه الإبل بعد الشرب»(١) رواه البخاري ومسلم.

وإن قوة إيمانه هذه جعلت من قلبه شفيفاً يرى به ما لا يراه غيره وقد قال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»

وكان عمر يحمل للجهاد في سبيل الله فيعطي الجمل للرجل أو الجمل للرجلين. لمن يريد أن يجاهد، فإن كان المجاهد يقصد الشام أعطاه جملاً لكثرة العدو بها وإن كان المجاهد يقصد العراق أعطى للرجلين جملاً واحداً لقلة العدو فيها وللترغيب للجهاد في الشام، فجاء رجل من العراق يريد أن يحتال ليأخذ جملاً وهو يريد العراق فقال: احملني وسحيماً، فقال له عمر: أنشدك الله يا أعرابي، أسحيم زق؟(٢) قال:

---

(١) جامع الأصول / ٦٤٤٢.

(٢) جامع الأصول ٦٤٥٣.

شبكة الألوكة www.alukah.net

نعم، وكان يريد أن يوهم عمر أن الأحيمراً هذا رفيق له لكي ينال جملاً فكشفه عمر ثم قال: «من لم يصدق ظنه لا يصدق يقينه» والخبر في الموطأ.

ويؤيد صدق حدسه ما أخبر به النبي ﷺ ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر»(١)

وفي رواية الترمذي ومسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب»(٢) وقال الشراح في كلمة محدثون: ملهمون وقالوا أيضًا: يصيبون إذا ظنوا وحدسوا فكأنهم حُدّثوه بما قالوا، والملهم: الذي يُلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدساً وظناً وفراسة. وعند الترمذي عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه» وقال أيضًا: «ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر» أخرجه الترمذي وهو حديث حسن صحيح غريب(٣).

ويؤيد هذا ما جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن عمر قال: «وافقت ربي في ثلاث، قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾(٤) وقلت يا رسول الله: يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغَيرة فقلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾(٥) فنزلت كذلك، وفي

---

(١) جامع الأصول ٦٤٣٤.

(٢) ٦٤٣٥.

(٣) ٦٤٣١.

(٤) البقرة ١٢٥.

(٥) التحريم ٥.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

شبكة الألوكة www.alukah.net

رواية ابن عمر ذكر مقام إبراهيم والحجاب وأسارى بدر، حيث كان رأي عمر أن يقتلوا فنزل القرآن موافقاً قول عمر ومعاتباً للنبي ﷺ في الفداء»(١).

ثم حدثْ عن قلبه الواعي المستنير بعد أن أصبح خليفة، كيف وجه الجيوش إلى الفتح وكيف استشاره قادته قبل خوض المعارك؛ وفي حصار المدن، فأرسل لهم تعليماته التي كانت فتحاً، ففي حصار مدينة حلب على سبيل المثال، فتح المسلمون المدينة واستعصت عليهم القلعة وامتد الحصار طويلاً فأرسل إليه قائد جيوشه أبو عبيدة رضي الله عنه رسالة يستشيره في ترك حصارها والمضي إلى غيرها فكان جوابه: «لقد ورد كتابك علي فسرني ما فتح الله على يديك، وأما ما ذكرته من انصرافك إلى البلاد التي تلي حلب وإنطاكية وترك القلعة ومن فيها فهذا رأي غير صواب، تترك رجلاً قد دنوت من دياره وملكت مدينته ثم ترحل فيبلغ إلى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه، فيطمع بك أجناد الروم»(٢).

وقد كان يتابع أخبار قادته لا يغيب عن ذهنه واحد منهم رغم كثرتهم وقد ذكر أصحاب التاريخ(٣) قصة سارية بن زُنيم الدؤلي حيث بعثه عمر على رأس جيش إلى «فسا ودارا بجرد» فحاصرهم، ثم إنهم تداعوا فأصحروا له وكثروا فأتوه من كل جانب، فقال عمر وهو يخطب في يوم جمعة: يا سارية الجبل، الجبل! وكان إلى جانب المسلمين جبل، إن لجؤوا إليه لم يؤتوا إلا من جهة واحدة فلجؤوا إلى الجبل ثم قاتلوا عدوهم فهزموهم، وأرسل سارية من يحمل الغنائم لعمر، وسأل أهل المدينة حامل الرسالة والغنائم عن سارية وعن الفتح وهل سمعوا شيئًا يوم الوقعة؟ فقال: نعم سمعنا: «يا سارية الجبل» وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا.

---

(١) جامع الأصول ٦٤٤٩.

(٢) فتوح الشام للواقدي.

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ص ١٧٨ ج ٤ في خبر فتح فساودارا بجرد.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ما حصل من صحابة رسول الله، وفيمن كان قبلنا فيهم المثل أيضاً.

مؤمن آل فرعون:

هذا الرجل الذي آمن بالله إيماناً حقاً فشرح الله صدره وهداه للخير، فكان ناصحاً أميناً يصدر رأيه عن قلب واع مستنير امتلأ إيماناً ففاض يضيء ما حوله، وفي سورة غافر خبر ذلك الرجل المؤمن قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾(١) ففرعون يقوده قلبه المظلم إلى الجريمة فهو يرفض المنطق والبراهين ويعتمد على القهر والبطش لكن مؤمن آل فرعون يدلي بدلوه وينصح، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾(٢) فالمنطق الصحيح في قول مؤمن آل فرعون، وأما الاستبداد في الرأي والعقل الضيق ففي قول فرعون، وهو يدعو قومه ألا يروا إلا ما يراه هو لهم، وهو في نظره سبيل الرشاد، لقد خوفهم مؤمن آل فرعون من بأس الله، لكن فرعون تمادى في الباطل ولا يريد لصوت أن يسمع إلا صوته، ولما رأى مؤمن آل فرعون ذلك انتهج نهجاً جديداً لعله يجدي مع فرعون وقومه فقال لهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾(٣) والمقصود بذلك الأحزاب الذين تحزبوا بكفرهم ضد أنبياء الله، ثم ذكر الله هؤلاء الأحزاب فقال: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ

---

(١) غافر ٢٦ – ٢٧.

(٢) غافر ٢٨ – ٢٩.

(٣) غافر ٣٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾(١) أي اليوم الذي ينادى فيه على الأمم ليعرف مؤمنهم من كافرهم وليوجهوا إما إلى النار وإما إلى الجنة. ويعرفهم بحقيقة هذا اليوم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾(٢) ثم يذكرهم بما جاء به يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾(٣)وهذا يدل على علمه بما مضى وثقافته الواسعة إضافة إلى إيمانه القوي، ويختم الله سبحانه وتعالى هذه المحاورة بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون بإثبات العقل والرشاد لأهل الإيمان، وضعفه وتخبطه عند أهل الكفر، وأن قلوب الكفار بما حوت من ضلال وكفر قد طبع عليها فعميت وزال عنها كل حس أو إدراك، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾(٤) ثم يطيش عقل فرعون أكثر عندما يطلب من وزيره الضال أن يبني له صرحًا لكي يطلع على إله موسى وكأنه يظن من جهله وسوء إدراكه أن إله موسى يقيم في برج أو ما شابه ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾(٥) قال في فتح القدير: وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدًا، وهذا كله بسبب الكفر فقد سيطر

---

(١) غافر ٣١ – ٣٢.

(٢) نفسه ٣٣.

(٣) نفسه ٣٤.

(٤) غافر ٣٥.

(٥) غافر ٣٦ – ٣٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشيطان على تفكيره وزين له سوء عمله ليرى نفسه أعلم العالمين فيتمادى في الباطل ويجادل فيه.

هذه نماذج ممن شرح الله قلبه بالإيمان فكان ذا شفافية وتبصر، وممن أضلهم الله بالكفر فعميت قلوبهم فتاهت وحارت ووقع أصحابها في الجحيم.

ليس للشيطان على المؤمنين سبيل:

إن المؤمن الحق آمن من مكر الشيطان وخداعه، وليس معنى هذا أن الشيطان لا يغويه، فالشيطان لا يترك أحداً من عباد الله إلا ويوسوس له، ولكن حصن المؤمن إيمانه القوي بالله، فكلما وسوس له الشيطان استعاذ بالله منه ولجأ إلى الله، وعلينا أن نتذكر دائماً العداوة بين إبليس وآدم، وأن نتذكر توعد إبليس لذرية آدم، وأن الله قد أبقاه لهذا الشيء، وذلك ليكون الإنسان في امتحان رهيب، ولكن إن فاز في هذا الامتحان فله جنان النعيم خالداً فيها أبداً يحيا فيها منعماً وقد ترك وراءه جميع أثقاله التي كانت على الأرض، فيأتي طاهراً مكرماً منعماً معافى غير مبتلى بما كان يعترضه على الأرض، حيث لا امتحان فيها ولا اختبار، فقد فاز في امتحان الله ونجا ونجح.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١).

فهذه الآيات تبين حقد الشيطان على بني آدم وأنه توعدهم بالإغواء، وقد قام الشيطان بمهمته هذه بدأب واستمرار دون كلل أو راحة، لا يجد منفذاً للإغواء إلا نفذ

---

(١) الحجر من ٣٢ - ٤٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net

من خلاله، وإذا فشل في مهمته عاد وحاول وحاول دون أن يفتر، وكانت بدء محاولاته مع آدم وزوجته حواء قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾(١).

وقد كانت وسوسته لآدم سريعة حيث لم يكن إلا هو وزوجته من البشر فركز اهتمامه عليهما حتى أغواهما، وجاء في الحديث: «ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة» وعند أحمد عند الحسن قال: «لبث آدم في الجنة ساعة من نهار تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا» وأخرج الحاكم عن ابن عباس وصححه قال: «ما سكن آدم الجنة إلا مابين صلاة العصر إلى غروب الشمس».

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن مسعود و ناس من الصحابة قالوا: لما سكن آدم الجنة كان يمشي فيها وحشًا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء من الضلع رأسه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته وإن تركته تركته وفيه عوج» وقد دخل إبليس لإغواء آدم عن طريق حواء وهي الأضعف فكيف تم له ذلك.

حوار آدم وإبليس:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ

---

(١) البقرة ٣٥ – ٣٦.

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾(١) قال المفسرون: كلم إبليس آدم وقال له: هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ وحلف لهما بالله إني لكما لمن الناصحين قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾(٢) فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء فأكلت، ثم قالت يا آدم. كل فإني قد أكلت فلم يضرني، فلما أكلا، بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

وفي صحيح الحاكم عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «إن آدم كان رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق طوله ستون ذراعاً كثير شعر الرأس فلما ركب الخطيئة بدت له عورته» وعنه أيضًا عن ابن عباس قال: قال الله لآدم: ما حملك على أن أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: يا رب زينته لي حواء...» وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» وهكذا عمل إبليس بكل ما أوتي من مكر وحيلة على إخراج آدم وزوجه من الجنة.

فلو سأل سائل: كيف ذكرت أنه لا سبيل للشيطان على المؤمنين وقد استطاع أن يغوي آدم وهو نبي؟ وقد ذكر في الصحيحين محاجة آدم وموسى والحديث له روايات كثيرة ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حاج آدم موسى فقال: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال: فقال آدم لموسى: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني؟ أو قدره علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»(٣) بقوله: أتلو مني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق؟ أقول: إنه لابد لتعرض

---

(١) طه ١١٦ - ١٢١.

(٢) الأعراف ٢١.

(٣) جامع الأصول ص ١٢٤ ج ١٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشيطان للإنسان في هذه الحياة الدنيا، ولا يوجد إنسان على وجه الأرض يخلو من خطيئة، والمعصوم من عصمه الله تعالى، لكن المهم ألا ينساق الإنسان وراء الشيطان ويكون تابعاً له يغويه ويغريه بفعل كل قبيح، إنما على الإنسان أن يشعر ويستذكر ويتوب كما فعل آدم قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١) وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس قال في شرح هذه الآية: «أي رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسبق إلي رحمتك قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسكنني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم» قال الله تعالى يصف المتقين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾(٢) فهذه صفات من كان له قلب مبصر واع، إذا شعر باغواء الشيطان له أو حصل له إغواء تذكر ورجع وتاب وعاد بعد المس من الشيطان ليبصر طريقه الحقيقي طريق النور والإيمان.

حصن المؤمن من الشيطان:

إن للشيطان مداخل كثيرة للإغواء، فهو مثلاً لا يغوي قوي الإيمان بالكفر ابتداء أو بالمعاصي الكبيرة الظاهرة، وإنما يدخل عليه من مداخل الشبهات وصغار الذنوب، فإن أطاعه في ذلك زين له الوقوع في معاص أكبر، وهكذا حتى يخرجه من الإيمان، ومن كان يلغ في المعاصي الكبيرة زين له الأكبر حتى يوصله إلى الكفر، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عرش إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا فيقول: ما صنعتَ شيئًا، ثم يجيء أحدهم

---

(١) البقرة ٣٧.

(٢) الأعراف ٢٠١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه ويلتزمه ويقول: نِعمَ أنت»[1] وقد ورد في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال: «أما بعد أيها الناس؛ فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم» ففي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» وفي حديث حذيفة: كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك» لوتركت هذه لطلب ما هو أكبر منها، فهو إذاً لا يدخل على المؤمنين من باب الشرك، ولكنه يدخل من باب الصغائر والأمور التي قد لا يلقي المسلم لها بالاً فتهوي به في النار سبعين خريفاً، ومن تلبيس الشيطان على المسلم أن يأتيه من باب أهون الشرين إلى أن يقع في الكبائر، ففي البخاري عن أبي مالك الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحرا والحرير والخمر والمعازف»[2] والحرا: الزنا وأما استحلال الخمر، فقد ورد أن أناساً يسمونه بغير اسمه كي يستحلوا شربه، وأما المعازف فقد فشت اليوم وأصبحت لا تستنكر كأنها حلال.

ويأتي الشيطان من أبواب مدعي العلم وهم جهلاء، وممن يحب الصدارة وكثرة الأتباع، فيبتدع لهم من الدين ما يرضيهم حتى يكونوا من شيعته، وقد أخبر النبي ﷺ عن مثل هؤلاء ففي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: يرويه عنه يزيد بن عميرة أنه كان لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس: الله حكم قسط هلك المرتابون، فقال معاذ بن جبل يومًا: إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير، فيوشك قائل

---

(١) جامع الأصول ص ٥٤ ج ١٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٢ ج ١٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ وما هم بمتبعيَّ حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإنما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، قال: قلت لمعاذ: وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق يقول كلمة الحق؟ قال: بلى اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات - المشتبهات - التي يقال: ما هذه؟ ولا يثنينك ذلك عنه، فإنه لعله يُراجع، وتَلَقَّ الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً»(١)

الذين جعلوا لله شركاء:

ومن إضلال الشيطان وإغوائه أن يضل الإنسان عن شكر المنعم فلا يُهدى إلى شكره شكراً خالصاً، وإنما يخلط عملاً صالحاً وآخر غير ذلك، فيقع في الشرك وكم من مسلم وقع في هذا، عندما يناجي ربه ويدعوه فيجعل مع الدعاء وسيلة من شيخ أو ولي قد مات وانتهى عمله، فيقع في الشرك دون أن يدري حتى ولو كان ذلك بحسن نية، فالمشركون قالوا عن أوثانهم وأصنامهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾(٢) فهم أرادوا العبادة ولكنهم ضلوا الطريق الصحيح فكانوا من الهالكين، والله منع أن تكون العبادة إلاله خالصة لا يدانيها أدنى شرك، لا في دعاء ولا في تسمية.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٣)

---

(١) رواه أبو داود وهو صحيح جامع الأصول ص ٤٣ ج ١٠.

(٢) الزمر ٣.

(٣) الأعراف ١٨٩ - ١٩٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهل هذا جزاء النعمة؟ يعطي الله ويُشكر غيره، ويمنح الله ويُحمد غيره؟! إن هذا الأمر عجيب، أين العقل والرشد؟ وكما نرى من سياق هاتين الآيتين، إنعام من الله على زوجين بالحمل الذي مر خفيفًا لم يثقل الأنثى ولم يتعبها، ثم وعد من الزوجين بأنه إن تم الحمل على الصورة التي يريدان ويتمنيان بأن يؤتيهما الله ولدًا صالحاً تاماً سوي الخلق والتكوين ليكونا من الشاكرين، وبعد تمام النعمة وحصول ما تمنيا إذا بهما يصلان عن الشكر الصحيح، فلا يضعان الشكر في موضعه الحق، فعوضاً عن شكر المنعم المتفضل بهذا الولد الصالح، إذا بهما يسارعان إلى تسميته عبداً لغير الله كعبد الحرث وعبد العزى... فكان هذا شركاً في التسمية وهذا قد بينته الآية ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ وكان ينبغي أن يسمى عبد الله للتعبير عن الشكر للمنعم وتمام العبودية له لا أن تضاف العبودية لغير الله، فإضافتها لغير الله تعد اعترافاً من المضيف بأن هناك معبوداً غير الله، وهذا شرك واضح، فالشرك في التسمية يجر إلى الشرك في العبادة، ولكي تكون العبادة خالصة لله تعالى وحده يجب أن يستبعد أي تداخل في هذا الأمر وهذا لا يحتمل أي تأويل، بل يجب أن يكون التوحيد لله خالصاً واضحًا لا شبهة فيه، لذلك شنع الله على من فعل هذا فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[1] أي أيشركون مع الله من لا يستطيع أن يخلق شيئًا كائناً ما كان من حقير تافة إلى خلق عظيم، بل هم، أي هؤلاء الشركاء، هم الذين يُخلقون، فهم خلق مثلكم، بل أنتم صنعتم تماثيلهم فهم أيضًا أضعف منكم.

وجاءت الآيات بعد ذلك تباعاً لتبين مقدار الشركاء وعجزهم وتبين تفاهة المشركين الذين رفعوا من قدر هؤلاء الشركاء سفهاً بغير علم، فهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا ينصرون أنفسهم ولا يستجيبون لدعائهم إذا دعوهم، ثم بعد هذا التفريع

---

(١) الأعراف ١٨٩ – ١٩٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ختم الآيات بقول المؤمن المتوكل على الله حق التوكل والذي لا يشرك مع الله أحداً، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(١) ثم يبين الله لعباده بعد هذه المحاورة وبيان الطريق السوي والانتصار على المشركين ودمغهم وتبكيتهم بالحجج الواضحة والمنطق السليم، يبين الله لعباده الالتجاء إلى الله من كيد الشيطان ونزغة قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) فهو الذي يجيرك ويعصمك من كيد الشيطان وإغوائه وإضلاله.

فتنة المال تؤدي إلى الشرك:

إن المال فتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ والمثل الذي سنورده حول الرجلين الصاحبين، المؤمن المنفق، والجاحد الممسك، وقد وردت قصتهما في سورة الكهف قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ فهذا الغني كان يمتلك جنتين مثمرتين فيهما الأعناب والنخيل يجري خلالهما نهر، فأي شيء أحسن من هذا، ثمر وخضرة وماء، فماذا كان من صاحب هاتين الجنتين؟ ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وهكذا جعله هذا المال يتعالى على صاحبه بكثرة المال والولد فكانت بداية الطريق في الإغواء التكبر والتعالي على الفقراء والضعاف، فلو كان صاحبه ذا مال وولد لما قال له هذا بل استغل فقره وضعف نسله فتعالى عليه في هذا الشأن، ثم امتد به التعالي والكبر إلى أن يدخل جنتيه بهذه النفسية المتكبرة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ وظلم النفس في مطاوعتها على الجحود والنكران

---

(١) الأعراف ١٩٦.

(٢) نفسه ٢٠٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في إطلاق العنان لوساوسها وعدم ردعها وقمعها، ثم امتد به الغرور والكبر ليقول: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، كأنه أخذ من الله عهداً بذلك أو أنه هو الذي نمّاها وجعلها بهذا الشكل بذكائه ومقدرته حتى اطمأن إلى أن هذه لن تبيد، وبهذا يكون قد نسب ما بها من نماء إلى نفسه وصنعه، وكأنه شابه في هذا الأمر قارون الذي نسب كثرة المال إلى علمه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾(١) وعلى هذا يكون قد مشى قدمًا في طريق الجحود وأن شيطانه ينقله من ذنب إلى ذنب أكبر فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ فانتقل حاله من الفخر بالمال والتكبر على صاحبه إلى الغرور بأن هذه لن تبيد أبداً كأنه منشئها ثم أظهر بعد ذلك الكفر والجحود، فأنكر قيام الساعة أو أنه سينقلب إلى ربه بعد ذلك، فمعنى كلامه أنه غير موقن بالحساب ثم قال: إن كان هناك آخرة فإنه سيُعطى خيراً من جنتيه فطالما أنه استحق هاتين الجنتين في الدنيا، فإنه بالتأكيد سينال أفضل في الآخرة، وهذا قياس باطل، فإن الله يملي للظالم في الدنيا ثم يأخذه، فإذا أخذه لم يفلته قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(٢) ولقد أحس صاحبه الفقير أنه قد اشتط في غيه وخرج عن حد الإيمان ودخل في الكفر ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وقال له لكني أنا أقول: إن الله ربي ولا أشرك بربي أحداً، ثم إن الله قد أحاط بجنتيه فأصبحتا خاويتين على عروشها فأخذ يضرب كفاً بكف ألماً وأسفاً وحسرة ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣) وهكذا فإن المال قد فتنه وأضله فاضطرب

---

(١) القصص ٧٨.

(٢) آل عمران ١٧٨.

(٣) الآيات المستشهد بها من سورة الكهف ٣٢ – ٤٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تفكيره فضل، فكان ماله وبالاً عليه. فالمال له سكرة في النفس مثل سكرة الخمر أو أشد وسكرته تبطر الإنسان وتذهب تفكيره في حاله ومآله.

ومثله هذا كمثل العاص بن وائل السهمي الذي كان يظن حسب ضلاله أنه سيؤتي المال والولد إذا كان في الآخرة كالذي له في الدنيا فزجره الله وكذب قوله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾(١) وكان عليه دين لخباب بن الأرت فطالبه به فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقال: والله لا أكفر حتى تموت ثم تبعث فقال له: إذا مت ثم بعثت جئتني ولي مال وولد فأعطيك. تفسير فتح القدير رواية عن البخاري.

فوز أهل الإيمان وتلاوم أتباع الشيطان:

يعطينا الله جلت قدرته صورة واضحة لما يكون يوم القيامة، بعد أن يفصل بين العباد فنرى صورتين، واحدة لأهل الإيمان وهم يستقرون في جنان الله حامدين لله شاكرين له فضله وكرمه ونعمة التي أسبغها عليهم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٢) فأي شيء أفرح من هذا للمؤمنين وأي شيء أبأس من هذا للكافرين الذين كانوا يظنون أنهم فازوا بكل شيء عندما كانوا في

---

(١) مريم ٧٧ – ٨٠.

(٢) الأعراف ٤٢ – ٤٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدنيا يصولون بباطلهم ويجولون فأين آلهتهم التي عبدوها؟ أين شركاؤهم الذين دعوهم من دون الله؟ لقد تخلى عنهم كل هؤلاء بل هم معهم في الجحيم . أما أهل الجنة فمنعمون خالدون في هذا النعيم مكرمون غاية التكريم يستجديهم أهل النار ويتذللون لهم من أجل شربة ماء فلا يجاب لهم بل إنهم محرومون قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ لماذا هذا الحرمان والمنع؟

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١) فهذا هو السبب لقد ذُكّروا كثيراً ودعوا إلى الله الواحد وخُوِّفوا من هذا المصير فلم يبالوا بل زادوا من طيغانهم وكفرهم وضلالهم وإيذائهم لدعاة الحق.

وأما صورة أهل النار من التلاوم، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾(٢) ولا ينتهي العتاب والتلاوم إلى هذا القدر، بل كلهم يشيرون إلى المجرم الأول إلى إبليس الذي أغواهم وأضلهم وصيرهم إلى هذه الحالة، ولكن أليس ذلك بأيديهم؟ ألم يقل الله تعالى لهم: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٣) إن نفوسهم التي فطرت على حب الشهوات، وعلى الشرك

---

(١) الأعراف ٥٠ – ٥١.

(٢) الأعراف ٣٨ – ٣٩.

(٣) فاطر: ٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والإيذاء وفعل كل قبيح، هي التي قادتهم وراء الشيطان، فلم تسمع صوت الحق وإنما سمعت صوت الضلال، فأعجبها وشنفت لهذا الصوت آذانها فانساقت وراءه تفرح بالغنيمة العاجلة، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١) وأخيراً بعد انقضاء الدنيا وانقضاء الأعمال حيث لا ينفع عمل ولا توبة، ولا اعتراف بما كان، ولا ندم عما سلف، يعترف الشيطان لأتباعه بحقيقته ،وبالسراب الذي كان يخدعهم به، لقد ظهرت بوضوح قوته الفارغة ووعوده الكاذبة، كانت طنيناً وطبلاً أجوف، لقد انكشف في ساعة الامتحان، واعترف بعجزه وضلاله، ثم قال لهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ لم يكن في مقدوره إلا الوسوسة والإغواء، فلو كانوا يملكون إيماناً قوياً لردوا عليه وسوسته، لكن ضعف إيمانهم وغلبة شهواتهم جعلتهم يقبلون وسوسته، فقال: ﴿ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ ولما ألحوا في السؤال لعلهم يجدون عنده بعض ما وعدهم، وهذا من كبير فرط تأثرهم به ومن عظيم ضلالهم، عاد فأخبرهم بعجزه وضعفه، بل زاد في إيضاح خذلانه أكثر فقال لهم: ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي لن أستطيع إغاثتكم كما أنكم لن تستطيعوا إغاثتي فكلانا في نار جهنم سواء، هذه هي الحقيقة يا أتباعي، وعليكم أن تعرفوها وأن تعلموا أيضًا أني كافر بإشراككم لي مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت لكن أنتم الذين غاليتم وخدعتم فجعلتموني شريكاً، قال الله تعالى مبيناً هذه الحقيقة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

---

(١) إبراهيم ٢٢.

(٢) سبأ ٤٠- ٤١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ مُبِينٌ ﴾(١) فالله سبحانه وتعالى نبه الإنسان وحذره من عبادة الشيطان وبين له الطريق الصحيح في العبادة، لكنه أبى واتبع شهواته لينفلت من قيود الإيمان، فضل وتاه فكان مصيره مع الشيطان في نار جهنم، ثم قال الشيطان لأتباعه: اعلموا أيضًا أن الظالمين لهم عذاب أليم، فهذا نموذج من تلاوم الشيطان مع أتباعه في الآخرة لخذلانهم، وكان قد خذلهم في الدنيا مرارًا لكنهم لم يرعووا، فكم مرة يحرضهم على المؤمنين ويعدهم بالوقوف إلى جانبهم ثم يخذلهم في أحلك الساعات ففي غزوة بدر المثل الكبير في هذا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٢) فماذا رأى حتى جبن وترك أتباعه؟ إنه رأى الملائكة وكان معهم جبريل عليه السلام وعلم أنه لا طاقة له بهم وأن النصر قد لاح للمسلمين لذلك ارتد على عقبيه وتبرأ منهم وادعى أنه يخاف الله، ففي الحديث عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»(٣) رواه البخاري.

وهناك نموذج آخر من تلاوم الأتباع مع ساداتهم، أو قل من تلاوم الأذناب مع ساداتهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾(٤) وهكذا فالمستكبرون أيضًا يسخرون أتباعهم لخدمتهم وارتكاب كل قبيح باسمهم، فبأتباعهم

---

(١) يس ٦٠.

(٢) الأنفال ٤٨.

(٣) جامع الأصول ٦٠١٦.

(٤) غافر ٤٧ – ٥٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كانوا يبطشون ويقتلون، وبجنودهم كانوا يعلون ويستكبرون، ثم يتخلون عن أتباعهم عند أدنى مصيبة في الدنيا، وهم بالآخرة أكثر تخليًا عنهم، فيقول الأتباع لهم: خذوا عنا نصيبًا من هذا العذاب، لقد كنا لكم تبعاً نعمل ونشقى وأنتم تسعدون وتتنعمون في الدنيا، فكيف صرنا معكم في النار ونحن لم ننل في الدنيا من الحظ مثلما نلتم؟! لكن جواب المتجبرين: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فأذن مؤذن يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت.

وبعد فإن الشرك ضلال كبير يؤدي بصاحبه للنار، وإن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك فمهما كان في قلب الإنسان من الإيمان فإنه في النهاية سينجو، وأما صاحب الشرك فلا نجاة له مهما أحسن، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب فيقول الله تعالى: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم اليوم فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء» أخرجه الترمذي[1] فهذه هي ثمرة الإيمان وهذا هو ثمنها.

---

(١) جامع الأصول ص ٤٥٧ ج ١٠ وهو صحيح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوصية الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وهي على تقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو على تقدير فعل محذوف هو «أوصيكم» فيكون: «وأوصيكم بالوالدين إحساناً» والإحسان إليهما: أن تعاشرهما بالمعروف وتتواضع لهما، وتمتثل أمرهما، لقد اهتم الإسلام كثيراً بأمر الوالدين، وأوجب طاعتهما وعد عقوق الوالدين من الكبائر، فعن أبي بكرة رضي الله عنه في الصحيحين قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر – ثلاثاً – قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور وقول الزور – وكان متكئًا فجلس – فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(١).

القرآن الكريم يؤكد على بر الوالدين:

وقد أكد القرآن الكريم على بر الوالدين والإحسان إليهما في مواضع كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾(٢) وقال أيضًا: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٣) وتأتي الوصية بالتأدب مع الوالدين والتذلل لهما وخفض الصوت أمامهما في هذه الآيات الحكيمة الرائعة، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾(٤) ولم تكن الوصية ببر الوالدين لأمتنا فقط بل هي لكل الأمم السابقة أيضًا قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ

---

(١) جامع الأصول ص ٦٢٣ ج ١٠.

(٢) الأحقاف ١٥.

(٣) النساء ٣٦.

(٤) الإسراء ٢٣ – ٢٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إِحْسَانًا ﴾[1] وجاء على لسان عيسى عليه السلام لتعليم قومه بر الوالدين: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[2] ومن قبل، إبراهيم عليه الصلاة والسلام جهد من أجل إيمان أبيه، لكن الوالد أبى، ومع ذلك فقد ظل إبراهيم باراً بأبيه وقال له: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[3] وقال ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾[4].

طاعتهما في غير معصية الله:

لقد أوصى الله عباده بطاعة الوالدين، وأوجب ذلك، لكن تلك الطاعة مقيدة في غير معصية الله، فالوالدان هما سبب إيجاد الولد في هذه الحياة، وتحملا تبعة تربيته والعناية به حتى شب وكبر، وهذا عمل يستوجبان عليه الطاعة والبر، ولكن هذه الطاعة لها حدود، وحدودها أن تبقى في دائرة الإيمان، فلا يطاعان بمعصية، لأن ذلك يؤدي إلى معصية الموجد، وهو الله سبحانه وتعالى، فطاعة الموجد مقدمة على طاعة من كان سببًا في الإيجاد، لأنه هو تعالى صاحب النعم وهو المربي على الحقيقة والحافظ والمحيي والرزاق، فلا تقدم طاعة من كان سببًا ومسخراً على طاعة من كان منشئًا وموجدًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5] وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) مريم ٣٢.

(٣) مريم ٤٧.

(٤) الشعراء ٨٦.

(٥) لقمان ١٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) ويروى أن سبب نزولها كان في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فلما أسلم علمت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان فقالت: يا سعد بلغني أنك قد أسلمت، فو الله لا يظلني سقف بيت من الضح(٢) والريح، وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد، وكان أحب ولدها إليها، فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه، فنزلت هذه الآية، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان، ولقد استنبط الزمخشري في تفسيره الكشاف أمرين مهمّين من خاتمة الآية ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: أحدهما: أن الجزاء إلي فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا، كما أني لا أمنعهما رزقي – فهو لجميع مخلوقاتي – والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد.

أما في غير المعصية لله تعالى فطاعتهما واجبة، فعن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها وكان عمر يكرهها، فقال لي: طلّقها، فأبيت، فأتى عمر رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال لي رسول الله ﷺ: طلّقها»(٣).

قال الترمذي حديث حسن صحيح. وهذا الأمر يحتاج إلى توضيح، هل يستجيب الولد الإرادة أبويه أو أحدهما في مثل هذه المسألة أم يمتنع؟ وإذا امتنع هل يكون عاقاً؟

في مثل هذه المسائل ينظر فيها إلى أمور عدة، منها:

١ – الضرر الذي سيلحق الوالدين من عدم تلبية رغبتهما.

---

(١) العنكبوت ٨.

(٢) الضح: أي البروز إلى الشمس.

(٣) جامع الأصول ص ٤٠٣ ج ١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٢ – مقدار تقوى الوالدين وورعهما وعلمهما.

٣ – أهمية الأمر الذي نهيا عنه، وما مقدار الضرر الذي سيعود على الوالدين من جراء هذا النهي.

ومما لا شك فيه أن عمر بن الخطاب عند ما أراد من ولده تطليق زوجته إنما كان ينظر ويرى شيئًا لم يره ولده، ونحن نعرف مقدار تقوى عمر وورعه ومقدار نظرته الثاقبة للأمور، وكذلك يؤثر عن إبراهيم عليه السلام الذي أمر ولده اسماعيل عليه السلام بتطليق زوجته عندما رأى منها تصرفاً لا يليق بها أن تكون زوجة لنبي. فإذا توفر آباء يخشون الله ويتقونه، فيجب على الولد تلبية طلبهم، وإلا كان عاقًا، كذلك ينظر للأمر إن كان فيه ضرر على الأبوين، فإن كانت امرأة الولد تكيدهما وتنغص عيشهما ولم ترتدع بالتهديد لتغيير معاملتها فالأولى تلبية طلب الوالدين إن طلبا طلاقها، أما إن كان الأمر لا يُلحق بهما ضرراً لا من قريب ولا من بعيد، كأن تكون في مسكن لوحدها ولا يصدر منها ما يؤذي الوالدين، فعدم تلبية رغبتهما أو أحدهما بطلاقها لا يعد عقوقاً، ويبقى الابن على الإحسان لهما وبرهما ما استطاع، وإن كان الأمر يتعلق في تجارة ونحوها وأشارا عليه بعدم العمل بها فهذا أمر راجع إلى تقديره، ويعد رأيهما من باب المشاورة إن شاء أخذ به وإن شاء أمضى تجارته، وهكذا تقدر الأمور من قبل الولد الحصيف لإرضاء والديه وكسب مودتهما، وقد ورد في الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة»(١) فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه.

وفي طاعتهما صلتهما، فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمتْ علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: قدمت علي أمي

---

(١) جامع الأصول ص ٤٠٤ ج ١ وهو صحيح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وهي راغبة – عن الإسلام – أفأصل أمي؟ «قال: صلي أمك»[٢] والصلة هنا: العطية والإنعام.

ولقد استغل كفار قريش حث الإسلام على طاعة الوالدين فأرادوا استغلال هذه الطاعة في رد المؤمنين عن دينهم بحجة عدم رضاء الوالدين، فقد رأينا قبل قليل ما فعلت أم سعد بن أبي وقاص من أجل رد سعد عن دينه: وكذلك يروي بن هشام في السيرة قصة عياش بن أبي ربيعة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتعدتُ لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص التناضب – مكان قرية قرب مكة أو شجر ملتف – من أضاة بني غفار – غدير يجمع ماء المطر – فوق سرف – موضع بين مكة والمدينة – وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب وحبس عنهما هشام وفتن فافتتن، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل ابن هشام والحرث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما عليه المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فَرَقَّ لها فقلت له: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فو الله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لاستظلت، قال: فقال أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه، قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريشًا مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبي إلا ذلك قلت: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها نجيبة ذلول فالزم ظهرها فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: والله يا ابن أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى قال: فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن، قال ابن إسحاق: فلما دخلا به مكة دخلا به

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نهاراً موثقاً، ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا»[1] وتمام القصة أن النبي ﷺ لما وصل إلى المدينة، قال: «من لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص» فتطوع الوليد بن الوليد بن المغيرة وذهب إلى مكة وأنقذهما.

مَنْ أحق بالبر؟

أمر الله سبحانه وتعالى ببر الوالدين كلاهما واختص الأم بمزيد من البر والصلة لكونها امرأة ضعيفة، والرجل أقوى وأشد، ولكونها حملت بولدها وأرضعت وسهرت، فالرجل استودع فيها النطفة وهي التي تحملت تبعاتها تسعة أشهر تقاسي وتعاني فكان أشق شيء عليها يوم الوضع، وكم من أم ماتت وهي تضع وليدها أو طرقتها حمى النفاس بعد الوضع، وقد بين القرآن الكريم شيئًا من هذه المعاناة قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾[2] وفي الحديث الشريف على أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: أمك» قال ثم من؟ قال: «أبوك»[3] رواه البخاري ومسلم.

في رواية أبي داود قال: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب».

وعند النسائي عن معاوية بن جاهمة، أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك فقال: «هل لك من أم قال: نعم قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجلها».[4]

---

(١) ابن هشام سيرة النبي ص ٨٥ ج ٢ و فيها تمام الخبر مفصلاً.

(٢) الأحقاف ١٥.

(٣) جامع الأصول ص ٣٩٧ ج ١.

(٤) جامع الأصول ص ٤٠٣ ج ١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد فضل رسول الله ﷺ بر الوالدين على الجهاد، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: «أحي والداك؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد» وفي رواية لمسلم قال: أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والديك أحد حي؟» قال: نعم بل كلاهما حي قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم! قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»(١) وأما قوله ﷺ: «ففيهما فجاهد» أي إبذل ما تستطيع من جهد في رضائهما يكون لك أجر الجهاد كما لو جاهدت الأعداء فعلاً.

ومهما قدم الولد لوالديه من معروف فلن يجزيهما حقهما بل يعد مقصراً لذلك عليه ألايمن ولايستكثر ما يقدم، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» أي إن رآه بهذه الحالة فاشتراه فأعتقه ليحيز له الحرية فيكون قد كافأه وقدم له معروفاً مساوياً لمعروف والده من التربية والانجاب، لأن الأب كان سبباً في وجود ابنه، والابن كان سبباً في تحرير والده من العبودية، والحرية هي الحياة.

ولما شكا أحد الأبناء إلى النبي ﷺ من أخذ أبيه لما له، مال مع الأب وعد الابن كسباً لأبيه، فعند أبي داود أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً وإن أبي يجتاح مالي – أي يأخذ منه أخذاً إلى حد الاستئصال – فقال: «أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»(٢) وهو حديث حسن وله طرق كثيرة.

ولهذا قصة، فقد روي أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إن أبي

---

(١) جامع الأصول ص ٤٠٢ ج ١.

(٢) جامع الأصول ص ٣٩٩ ج ١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

أخذ مالي فقال النبي ﷺ اذهب فأتني بأبيك، فنزل جبريل على النبي ﷺ فقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه، فلما جاء الشيخ قال ما بال ابنك يشكوك تريد أن تأخذ ماله؟ قال سله يا رسول الله هل أنفقته إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي، فقال النبي ﷺ: إيه دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك، فقال الشيخ والله ما يزال الله يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئًا ما سمعته أذناي، فقال: قل وأنا أسمع فقال:

غذوتك مولوداً وصنتك يافعاً ... تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهراً أتململ
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حقها أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار فلم تكن ... علي بمال دون مالك تبخل

عند ذلك أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك».(١)

البر يبقى حتى بعد موت الأبوين:

وعلى الولد ألا يقطع بره لأبويه بمجرد موتهما بل يبرهما بالدعاء لهما والأداء عنهما ففي الحديث الصحيح: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» وعند أبي داود عن مالك بن ربيعة

---

(١) ص ٢٨ ج ١ كشف الخفاء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الساعدي قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتهما؟ فقال: «نعم، الصلاة عليهما – بمعنى الدعاء لهما – والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما»(١)

وعند مسلم عن بريدة بن الحصيب قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت فقال: «وجب أجرك وردها عليك الميراث، قالت: يا رسول الله إنها كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها؟ قال: «صومي عنها» قالت إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: «حجي عنها»(٢) وعند مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي» أي أن يصل أصدقاء أبيه بعد موته.

أثر بر الوالدين على الولد البار:

ولا يخفى أثر بر الوالدين على الولد البار، فالله سبحانه وتعالى يطيل عمره ويتوفاه على الإيمان، ويكثر في الدنيا رزقه ويسوقه سوقاً إل الحسنات، فتراه منعمًا مكرماً وضيء الوجه محفوظًا من المصائب العاتية والبلايا الجائحة، مبارك له في ماله وولده أنى توجه يلقى الخير، وحول هذا الأمر أخبار كثيرة موثوقة تظهر أثر بر الوالدين على الولد البار، وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يبسط الله له في رزقه وأن ينسأله في أثره فليصل رحمه»(٣) وينسأله في أثره أي: يزيد في عمره أو يبارك له فيه.

فهذا في بر الأقارب وصلتهم فكيف في الوالدين الذين هم سبب في هذه

---

(١) جامع الأصول ص ٤٠٧ ج ١.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٤ ج ١.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٨٨ ج ٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

القرابة؟ إن الأجر لأعظم، وببركة بر الوالدين يغفر الله الذنب، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت ذنبًا عظيماً فهل لي من توبة؟ فقال: «هل لك من أم؟» قال: لا، قال: «فهل لك من خالة؟ قال: نعم، قال: «فبرها»(١) والنبي ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأم» قال الترمذي حديث صحيح. وفي الحديث عن ابن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «رضى الرب في رضى الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين» رواه الترمذي، وقد حضر النبي ﷺ شاباً يُحتضر فلقنه الشهادة فلم يستطع نطقها، فقال هل له أم؟ فقالوا نعم، فطلبوها وسألوها عنه فكانت غير راضية عنه، وسألوها الدعاء له فلم تجب، فقال النبي ﷺ إلي بحطب لأحرقه، فرق قلبها وسامحته فنطق بالشهادة وحلت عقدة لسانه، ومن فضل بر الوالدين قصة أصحاب الغار، ففي البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب شجر يومًا، فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح عل يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج...) والغبوق: شراب آخر النهار، والمعنى أنه ما كان يُقَدّم عليهما في شرب حظهما من اللبن أحداً، ويتضاغون: يصيحون من الجوع.

(راجع تمام القصة عند البخاري أو مسلم).

---

(١) جامع الأصول ص ٤٠٦ ج ١ ورجاله ثقات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عقوق الوالدين:

لقد عد الله عقوق الوالدين من الكبائر لما للوالدين من فضل كبير وإن من أكبر العقوق وأشده على الأبوين أن يكون ولدهما جاحداً ضالاً لا يلتزم منهج الإيمان، عند ذلك يشعران أن قطعة منهما تحوم حول النار لتسقط فيها، فيتأذيان كثيراً ويجهدان في هداية ولدهما وترغيبه، وفي قصة ابن نوح عبرة كبيرة، فكان كافراً عاقاً، ومع ذلك تعلق به قلب نوح عليه السلام رغبة في هدايته، فناداه في رقة وحنان لينجو مع أبيه من العذاب الواقع بالكافرين ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ ولكن الجحود أعمى قلبه وتفكيره كما قررنا ذلك من قبل فنطق بالعناد وخلع من قلبه طاعة الله وطاعة والده فكان جوابه ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ وظل قلب الوالد مع ابنه، إنه يأمل ويأمل أن يهديه الله ليكون من الناجين وتوسل نوح إلى ربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ولم يهدأ نوح إلا بعد أن حسم الله الأمر وبيّن كفر ولده وأنه غير صالح ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾(١).

ولقد روى القرآن الكريم أيضاً قصة الولد العاق الذي خيب أمل والديه بكفره وعقوقه، وكانا يأملان منه أن يكون مؤمناً قوياً في إيمانه، فيكون قرة عين والديه قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾(٢) وفي سورة الكهف قتل الخضر الولد العاق الكافر خشية أن يفتن والديه قال تعالى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ

---

(١) هود ٤٢ - ٤٦.

(٢) الأحقاف ١٧.

شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾(١) ثم قبل انصراف موسى ومفارقته للخضر بين له الخضر سبب قتله الولد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾(٢) ومن العقوق أيضًا التسبب في شتم الوالدين، ففي الحديث الشريف في البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه قال: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب الرجلُ أبا الرجل وأمه فيسب أباه وأمه»(٣).

قصة جريج:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم قال: وكان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له: جريج فابتنى صومعة وتعبد فيها، قال: فذكر بنو إسرائيل عبادة جريج فقالت بغي منهم: لئن شئتم لأفتننه فقالوا: قد شئنا ذاك، قال: فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأمكنت نفسها من راع كان يؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريج فحملت فولدت غلاماً فقالوا: ممن؟ قالت: من جريج فأتوه فاستنزلوه فشتموه وضربوه وهدموا صومعته فقال: ما شأنكم؟ قالوا إنك زنيت بهذه البغي فولدت غلاماً، فقال وأين هو؟ قالوا: هو هذا، فقام فصلى ودعا ثم انصرف إلى الغلام فطعنه باصبعه فقال: بالله يا غلام من أبوك؟ فقال: أنا ابن الراعي، فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه، وقالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال لا حاجة لي في ذلك ابنوها من طين كما كانت»، وكان هذا بسبب دعاء أمه عليه ففي رواية

---

(١) الكهف ٧٤.

(٢) نفسه ٨٠ - ٨١.

(٣) جامع الأصول ٦٢٨ ج ١٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net

أخرى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يتعبد في صومعته فأتته أمه ذات يوم فنادته فقالت: أي جريج أي بني أشرف علي أكلمك أنا أمك أشرف علي، فقال: أي ربي صلاتي وأمي، فأقبل على صلاته ثم عادت فنادته مراراً فقالت: أي جريج أي بني أشرف علي فقال: أي رب صلاتي وأمي فأقبل على صلاته فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه المومسة – أي المرأة الزانية –»[1] ثم كان من أمره أن اتهم بالزنا فبرأه الله حيث أنطق الله الغلام وذكر اسم الراعي الذي فعل الفاحشة بها.

وهذه القصة تبين مدى استجابة دعاء الله للأم في ولدها إن عقها حتى في هذا العابد، لولا أن تداركه الله بلطفه ليريه مدى مقدار بر أمه.

قصة الخليفة العباسي المتوكل على الله:

المتوكل على الله هو الخليفة العباسي العاشر، قتله ولده محمد المنتصر ليتولى الخلافة بعده، فتآمر عليه مع القادة والطامعين، ثم أدخلهم عليه فقتلوه، ثم بايعوا ولده بالخلافة، ولما تم له ذلك لم يهنأ بالخلافة بعد فعلته النكراء، لقد مات بعد ذلك بستة أشهر، قيل رأى في المنام والده فقام وهو يبكي وينتخب فسمعه عبد الله بن البازيار فأتاه فسأله عن سبب بكائه فقال: كنت نائماً فرأيت فيما يرى النائم كأن المتوكل قد جاءني فقال: ويحك يا محمد قتلتني وظلمتني وغبنتني خلافتي والله لا مُتّعتَ بها بعدي إلا أياما يسيرة، ثم مصيرك إلى النار، فقال له عبد الله: هذه رؤيا قد تصدق وقد تكذب، بل يَعْمُرك الله ويَسُرّك، لكنّ المنتصر ظل متأثراً منكسراً إلى أن توفي وكان السبب المباشر لوفاته أن جاءته الذبحة في حلقة وقيل كانت علتّه من ورم في معدته ثم صعد إلى فؤاده فمات، جرى ذلك له في ثلاثة أيام، مات ولم يجاوز

---

(١) هذه القصص نقلاً عن ابن كثير – البداية والنهاية ص ١٢٠ ج ٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الخامسة والعشرين. وهذا من أعظم الإثم حيث جمع بين القتل والعقوق وكلامهما جريمتان كبيرتان، وفي التاريخ قصص مشابهة وفي هذه العبرة كافية لكل ذي لب وقلب.

الوصية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وهي وصية الآباء بالأبناء، فهل كان العرب يفعلون ذلك؟!

كان بعض العرب يفعل ذلك، وذُكر كان هذا في ربيعة ومضر، وقد ورد في الحديث عن ابن عباس قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١).

وحدث فعل هذا العمل المنكر بتزيين الشيطان لهم، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(٢) والشركاء هم الشياطين وقيل سدنة الأصنام، أوْحوا لهم هذا ليصل إليهم المال، فكانوا يحرمون أبناءهم ويقتلونهم ويعطون شركاءهم من مالهم وأنعامهم، وهذا تفسره الآية قبله ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٣).

وهكذا يفوز الشركاء بكل شيء، يزعمون أن هذا القسم يذهب إلى الله فيقبضونه نيابة عنه فهم الآخذون، والذي لهم يقبضونه هم أيضًا، فمن أجل المغانم

---

(١) الأنعام ١٤٠.

(٢) الأنعام ١٣٧.

(٣) الأنعام ١٣٦.

شبكة الألوكة www.alukah.net

والإفساد زينوا للمشركين قتل أولادهم، فكان الإملاق - أي الفقر - دافعهم لقتل الأولاد سواء أكانوا ذكوراً أو إناثاً، كما كانوا يقتلون البنات خشية العار وخوف السبي قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(١) وقال أيضًا في مجال تبكيت العرب لقتلهم البنات: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾(٢).

ولما كان هذا العمل القبيح فاشيًا في المجتمع العربي الجاهلي نبه الله تعالى عليه في أكثر من موقف، فمن أجل خوف العار أخبرهم أن هذا تصرف سيء ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وبالسؤال الإنكاري ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ ومن أجل خوف الفقر طمأنهم أنه الرزاق وأن رزقه يفيض على الجميع صغاراً وكباراً قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾(٣) وقد يكون الرزق بسبب هولاء الأولاد لقوله: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ فجعل الرزق لهم والآباء تبعاً، وفي آية الأنعام ﴿ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ جعل الرزق للآباء والأولاد تبعاً لهم، أي: أيها الآباء والأبناء استوصوا ببعضكم خيراً لا تدرون من يُرزق بسبب مَنْ.

اهتمام الإسلام بالأولاد:

وقد شرط الله على المسلمات قبل مبايعة الرسول ﷺ لهن أموراً كثيرة منها: ألا يقتلن أولادهن لكي تتم البيعة، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤)

---

(١) النحل ٥٨ - ٥٩. (٢) التكوير ٨ - ٩.

(٣) الإسراء: ٣١.

(٤) الممتحنة ١٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى سوء هذا العمل في الجاهلية – وأنه من وحي الشياطين والكذابين وأن هذا العمل قبيح لا يقدم عليه إنسان سوي، حَرَّم ارتكابه في الإسلام بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أي ذنبًا عظيمًا وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك»(١).

وكما أخذ البيعة على النساء بعدم قتل الأولاد في سورة الممتحنة أخذها الرسول ﷺ من صحابته أيضًا، فعن عبادة بن الصامت كما في البخاري ومسلم قال: كنا مع رسول الله في مجلس فقال: «تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، وفي رواية «ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارة له وطهر، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه» قال فبايعناه على ذلك(٢) وفي خطبة حجة الوداع أوصى الآباء بالأولاد والأولاد بالآباء ومما جاء في هذه الخطبة: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده ولا يجني ولد على والده»(٣) من رواية الترمذي، وهذا للتنبيه، لكن في الحكم الشرعي أن الأب لا يقاد بابنه لحديث عمر بن الخطاب «لا يقتل الوالد بالولد» وذلك لشرف الأبوة وعليه غالب المذاهب الأربعة، ولكن يقتل الولد بالوالد، وأما آية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾(٤) فلا تعني

(١) جامع الأصول ٨٢٣١.

(٢) جامع الأصول ص ٢٥٠ ج ١.

(٣) جامع الأصول ص ٢٥٩ ج ١.

(٤) التغابن ١٤.

www.alukah.net

العداوة المعهودة من الكيد والحقد، وإنما نزلت في أناس أسلموا وهم في مكة فأرادوا الهجرة فمنعهم أولادهم وأزواجهم فحرموا من خير الهجرة وثوابها فعدَّ الله تعالى هذا المنع عداوة.

من أخبار العرب في وأد البنات:

ورد في كتاب قصص العرب ما يلي: قال: «روت الرواة أن صعصعة بن ناجية لما أتى النبي ﷺ فأسلم قال: يا رسول الله؛ إني كنت أعمل عملاً في الجاهلية أفينفعني ذلك اليوم؟ قال: ما عملك؟ قال: أضللت ناقتين عشراوين - يقال هذا للناقة الحامل - فركبت جملي ومضيت في طلبهما فرفع لي بيت جديد - بعيد عن الناس والطريق - فقصدته؛ فإذا شيخ جالس بفناء الدار فسألته عن الناقتين فقال: ما نارهما - أي وسمهما -؟ قلت: ميسم بني دارم فقال: هما عندي، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك مضر، فجلست معه لتُخرجا إلي فإذا عجوز قد خرجت من كسر البيت، فقال لهما: وضعت؟ فإن كان سقبًا - ذكرًا - شاركنا في أموالنا - أي رضي به - وإن كانت حائلاً - أنثى - وأدناها، فقالت العجوز: وضعت أنثى، فقلت أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها؟! قلت: إنما أشتري منك حياتها ولا أشتري رقها، قال: فبكم؟ قلت: احتكم، قال: بالناقتين والجمل، قلت: ذلك لك على أن يبلغني الجمل وإياها إلى منازلي، ففعل.

فآمنت بك يا رسول الله وقد صارت لي سنة في العرب، على أن أشتري كل مؤودة بناقتين عشراوين وجمل، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتها، فقال رسول الله: «لا ينفعك ذلك، لأنك لم تبتغ به وجه الله، وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه»(١).

---

(١) قصص العرب ص ٣١ ج ٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ففي هذا الخبر يظهر ضخامة عدد الموءودات، فهن لسن نوادر، لذلك ذكرهن الله في القرآن وشنع على الفاعلين.

وعند البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نُفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيى المؤودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيكها مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال: لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها»(١)

وزيد هذا مات قبل أن يدرك الإسلام، وقصته تشبه قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه الذي سافر من بلد إلى آخر بحثاً عن الدين الحق إلا أن سلمان وصل إلى المدينة وأدرك النبي ﷺ فأسلم أما زيد فإنه عاد إلى مكة بعد أن أبى أن يتهود أو ينتصر وعاد لينتظر ظهور النبي ﷺ كما أخبر في رحلته لكن قضاء الله سبقه فقتل من قبل قطاع الطرق قبل أن يصل إلى مكة. وقال قبل أن يلفظ أنفاسه: «اللهم إن كنت حرمتني من هذا الخير فلا تحرم منه ابني سعيداً»(٢) وابنه سعيد بن زيد من أوائل من أسلموا وكان سبباً في إسلام عمر بن الخطاب.

الحث على إكرام الأبناء عموماً والبنات خصوصاً:

أكد الإسلام على تكريم الأبناء ورفع شأنهم وتربيتهم التربية القويمة وذلك رداً على عادات الجاهلية التي استهانت بهم أحياناً وخصوصاً البنات، فقد ذكر في تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن: «ومن عادات العرب المستقبحة وأد البنات مخافة المذلة أو العار على أن هذا الأمر لم يكن شائعاً عند العرب، بل كان في بعض

---

(١) البخاري ج ٤ ص ٢٣٣.

(٢) انظر صور من حياة الصحابة للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ج ٣.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر وعلى الأخص في بني أسد وتميم، وقد نهى عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾(١)، أما معاملة العرب لأبنائهم الذكور فكانت تنطوي على الحنان والمحبة إلا قليلاً من الفقراء والضعفاء الذين كانوا يقتلون أولادهم مخافة الإملاق، وقد سفههم الله في ذلك ونهى عن هذه العادة المرذولة بقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

ولقد «أبصر الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل الحسن، فقال: إن لي من الولد عشرة ما قبلت أحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يرحم لا يُرحم»(٢) وهذا يدل على رحمة الإسلام بالأبناء كما يبين لنا كيف كان تصرف أهل الجاهلية معهم، فالأقرع بن حابس كان حديث عهد بالإسلام وكان يعد من المؤلفة قلوبهم فأعطاه النبي ﷺ من غنائم غزوة حنين.

وفي الأثر الذي يرويه أبو داود عن البراء بن عازب قال: دخلت مع أبي بكر أول ما قدم المدينة فإذا عائشة ابنته مضجعة قد أصابتها حمى، فأتاها أبوبكر فقال لها: كيف أنت يا بنيه؟ وقبّل خدها (٣) وإسناده حسن» فهذا يدل على حنان الأبوة وتكريم الأولاد في ظل الإسلام، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»(٤) وفي رواية أخرى لمسلم قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها

---

(١) التكوير ٨ – ٩.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة وهو حديث حسن صحيح.

(٣) جامع الأصول ص ٤١٦ ج ١.

(٤) جامع الأصول ص ٤٤١ ج ١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منها تمرة، ورفعتْ إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت للنبي ﷺ فقال: «إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة وأعتقها بها من النار» وهكذا جعل الإسلام من ينفق على بناته ويربيهن التربية الحسنة، الجنة، فأي فضل أعظم من هذا؟

وعند مسلم أيضًا عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة وأنا وهو - وضم أصابعه» وفي رواية الترمذي «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه» وعند أبي داود قال: «من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو اختين أو ابنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة»(١)

وعال: بمعنى أنفق عليهم وقام بأمرهم.

وعن سعيد بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن» ونحل بمعنى أعطى، فالصورة في ظل الإسلام مشرقة زاهية، بر بالوالدين من الأبناء ومحبة وعطف وحنان من الوالدين للأولاد ولقد بلغ من محبة المسلمين لأولادهم أن دفعوهم لطلب العلم عند من يحسن تعليمهم ودفعوا بسخاء لمن يعلمهم ويؤدبهم، كما كان بعضهم يزود المعلم بنصائح لتعليم ابنه تدل على ما يريد لابنه أن يكون، وكان جل اهتمامهم أن يلم بعلوم الدين والأدب وحسن الأخلاق، فهذا عتبة بن أبي سفيان - أخو معاوية - يوصي معلم أولاده عبد الصمد فيقول له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بَني إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبح عندهم ما استقبحت، وعلمهم كتاب الله ولا تكرههم فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه ثم روّهم من الشعر أعفه، ومن

---

(١) جامع الأصول ج ١ رقم ٢١٣.

www.alukah.net

الحديث أشرفه ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم وتَهَدّدهم بي وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء وجنبهم محادثة النساء وروّهم سيُر الحكماء وزدْ في تأديبهم أزدك في بري» وكذلك أوصى الخليفة الرشيد معلم ابنه خلف الأحمر فقال له: «إن أمير المؤمنين رفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، وصيّر يدك عليه مبسوطة ومقالتك فيه مصدقة وطاعتك عليه واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعلمه الآثار والأخبار والسنن، وروه الأشعار وبصّره بمواقع الكلام، ومُرْه بالرزانة في مجلسه والاقتصاد في نظره وسمعه فلا تمرنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها، وكلمة نافعة يعيها ويحفظها، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقوّمه بالتقريب والملاينة فإن أبي فبالشدة».

وأما القاضي شريح فكانت وصيته من نوع آخر حيث رأى ولده يهارش كلباً له فكتب رقعة إلى معلمه يقول فيها:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها
طلب الهراش مع الغواة الرجّس
فإذا أتاك فعضه بملامة
أوعظه موعظة الرفيق الأكيس
وإذا همت بضربه فبدّرة
وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه
مع ما يجرّعني أعز الأنفس

فكان في البيت الأخير رقة وحنان وعطف رغم شدة ما تقدم وفيه يعلمه أنه مهما قسا عليه فليعلم أنه ولده ومهجته، ونفسه من أعز الأنفس عليه، بمعنى أنك إن أدبته فلا تكسر عظمًا أو ترق له دماً، ولما أوصل الولد الرسالة لأستاذه، ضربه عشراً

شبكة الألوكة www.alukah.net

وعشرًا، فقال له شريح لم ثنيّت عليه الضرب؟ فقال: العشر الأولى للبطالة، والثانية للبلادة حيث لا يدري ما يحمل»(١)

وقد ورد في الأخبار قصة عبد المطلب جد النبي ﷺ عندما نذر؛ لئن أتاه الله عشرة من الأولاد يمنعونه ويحمونه لينحرن أحدهم، فكان له ذلك، واقترع فيمن ينحر من أولاده فكانت القرعة على عبد الله والد النبي، لكنّ قريشًا منعته من ذلك وأشارت عليه بالفداء، فافتداه بمائة من الإبل، من هذه القصة نستنتج أن من عادات الجاهلية من يجيز لنفسه قتل ولده(٢) ولولا إلفة ذلك لما نذر هذا النذر، وفي الإسلام لم نسمع بذلك ولم نخبر أن أحداً نذر ذبح ولده وذلك لأن الإسلام منع ذلك ونهى عن هذا العمل القبيح، ولهذا لا نجد حتى الآن أمة أرحم بأولادها من المسلمين، فمن الأمم من يفرق بين الأولاد بالمحبة والميراث، أو يحرم بعضهم ويعطي بعضهم، ومنهم من يجبرهم على أداء أعمال شاقة قبل سن البلوغ ليأتوه بالمال وهو جالس لا عذر له من مرض أو شيخوخة، ومنهم من يبيع أولاده كما في جنوب شرق آسيا، ومنهم من يأكل أولاده إذا جاع كما في غابات إفريقيا وعند الأسكيموالأقزام في شمال كندا..

الوصية الرابعة:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.

ما الفواحش التي نهى الله عباده من قربانهاومفارقتها؟

قال السيوطي ما نصه: «فإن الفواحش كل ذنب فيه حد، والكبائر كل ذنب عاقبته النار، واللمم ما بين الحدين من الذنوب» وفسرها عدد من المفسرين بأنها

---

(١) من كتاب قطوف أدبية – عبد السلام محمد هارون ص ١٩٠ – ٩١.

(٢) يجب ألا تسحب هذه القصة على ما فعله إبراهيم عليه السلام حيث رأى في المنام أنه يذبح ولده، فقصة إبراهيم حقيقية وهي وحي من الله وأمر له بذلك لأمر يريده الله، ثم إن الله فداه بذبح عظيم ونجا إسماعيل ونجح إبراهيم في الاختبار.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكبائر مطلقاً، وقال آخرون: ما يكبر عقابه دون تخصيص بحد.

وقد نقل الشوكاني في تفسيره أقوالاً كثيرة منها: الفحش والفحشاء والفواحش أصلها السوء والقبيح، والتجاوز للحد في القبح، وقيل: ما لا حد فيه، وقيل الفحشاء: الزنا، وقيل: إن كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء. اهـ

أقول: لكن المتتبع لآيات الله التي تعرضت لذكر الفواحش أو الفحشاء يجدها تذكر هذا اللفظ في النهي عن الزنا وهو المقصود هنا، وكذلك تذكر في النهي عن القول القبيح الذي فيه قذف أو تهمةُ زنا، أما بقية الكبائر والآثام الأخرى فقد ذكرت باسمها ولا داعي لتسميتها بالفواحش وإنما تقصر هذه اللفظة على القبيح من فعل الزنا أو الرمي به أو الشتم بألفاظه فهذه هي الفواحش حصراً، قال الله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾(١) والفاحشة هنا: الزنا وشهادة الشهود لإقامة الحد، أي حد الزنا، بعد أن نزل الحد، وفي هذه الآية بالذات كانت الشهادة لإمساكهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت، ثم أصبحت الشهادة لإقامة الحد. وقال تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾(٢) وهنا وردت أيضاً في معرض التشنيع على من ينكح زوجة أبيه وعدها الإسلام من أقبح أنواع الزنا «فعن البراء قال: لقيت خالي ومعه الراية قلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده فأمرني أن أضرب عنقه وآخذ ما له» فإرسال رجل إليه يحمل راية دليل إعلان الحرب عليه وقتاله علناً لما في هذا الأمر من شناعة.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾(٣)

---

(١) النساء ١٥.

(٢) نفسه ٢٢.

(٣) نفسه ٢٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وذلك إذا أحصنت الأمة وزوجت فإن زنت أقيم عليها نصف الحد المقرر على الحرائر، وهو خمسون جلدة ولا ترجم. وهنا نرى أن كلمة «فاحشة» تعني الزنا فعلاً وممارسةً.

وتعني هذه الكلمة أيضًا اللواط بالذكران، وعاب الله قوم لوط على فعلتهم هذه، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾(١) وقال أيضًا: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) وكذلك ذكرت الفاحشة في مجال توبيخ الذين يرمون المحصنات بتهمة الزنا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(٣) وأما قوله تعالى: ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ فقد ذكر المفسرون: أن العرب كانت تعيب الإعلان بالزنا ولا تعيب اتخاذ الأخدان ،والخدن: هي التي ترضى أن تزني بواحد فقط حتى تضع حملها منه، وقيل هي التي تزني سرًا، أما المسافحة فهي التي تزني علناً وتتخذ ذلك عملاً لها وهوى في نفسها.

لذلك أكد الله سبحانه وتعالى هذا المنع بآية مشابهة ذكر فيها التحريم صراحة فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾(٤) وعليه فلفظ الفاحشة والفواحش، أريد به الزنا عموماً أو القذف به كما مر في الآيات الكريمات التي سبق ذكرها.

---

(١) النمل ٥٤.

(٢) العنكبوت ٢٨.

(٣) النور ١٩.

(٤) الأعراف ٣٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أخطار الزنا:

لقد حرم الله سبحانه وتعالى الزنا وجعل عقوبته كبيرة، خصوصاً للمحصن، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»(١) وهذا صريح في جلد غير المحصن ورجم المحصن، وهذه العقوبة الكبيرة لعظم الجريمة وفداحتها، لأن العقاب يتناسب مع الذنب، فلولا أنه ذنب شنيع لما كانت عقوبته بهذه الشدة، وهذا كله من حرص الإسلام على نظافة المجتمع الإسلامي وطهره وعفافه، والمحافظة على النسل وصيانة الأعراض وصفاء العرق وعدم وجود عرق مدسوس في الأسرة يشاركهم في الطعام والميراث، وهو ليس منهم ويكون مَحْرمًا عليهم وهو ليس بِمَحْرَم، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي الدرداء قال: «نظر رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إلى امرأة مُجِحٍّ اقتربت ولادتها لكبر بطنها - بباب فسطاط، فسأل عنها فقيل أَمَة فلان، فقال: «لعله يريد أن يُلِمَّ بها» أي: يجامعها، فقالوا: نعم قال: «لقد هممت أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره، كيف يورثه وهو لا يحل له أو كيف يستخدمه وهو لا يحل له»(٢) أي إن هذه المرأة الحامل من غيره لا تحل له حتى تضع حملها وإن كانت مملوكة له، إذ كيف يدعي هذا الولد فإنه ليس بولده ولا يحل له بالتالي توريثه، وكذلك إن كان غير ولده وهو بالطبع من ماء غيره لكنه سقاه من مائه فاكتسب شيئًا منه(٣)، فكيف له أن يسترقه؟ وهذا

---

(١) جامع الأصول رقم ١٨١٢.

(٢) رواه مسلم.

(٣) بيّنت عدة من الأحاديث الصحيحة أن الولد يتأثر بماء الرجل وهو جنين في رحم أمه فيكتسب صفات خلقية وخلقية كزيادة السمع والبصر وما يورثه الأب من صفات وأن الجنين الذي يتوفى عنه والده بعد الحمل مباشرة يختلف في الصفات والخلق عن الجنين الذي يبقى والده على اتصال بأمه حتى الولادة، ولا عبرة للعلم إن لم يكتشف ذلك فالإسلام سبق العلم بأمور كثيرة، وهذا الحديث أحدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا يحل له أن يسترق ولده، وعليه فالاستبراء هو الأضمن والأطهر ليعرف الولد إن كان منه أو من غيره، فيثبت له النسب الصحيح ولا يكون مجهول النسب.

ومن أخطار الزنا تفشي الفساد وموت النفوس وحلكة الوجوه وانتشار الأمراض التناسلية مثل الزهري والسيلان والهربيز والإيذ، وهذه أمراض فتاكة مهلكة للنسل.

والإسلام عندما منع الزنا وشدد في منعه بيّن الطرق الحلال في إرواء الغريزة، وسهل الزواج ورغب فيه، ومنع المغالاة في المهور وسن النبي ﷺ سنة في ذلك حيث لم يزد مهر أزواجه على أربعمائة درهم.

ولما كان في المجتمع شواذ يخرجون عن المألوف ويجترؤون على محارم الله كان لابد من عقاب رادع لأمثال هؤلاء بلا هوادة ولا رحمة، ففي الحديث الذي ورد في الصحيحين عن عبد الله بن عباس قال: «سمعت عمر بن الخطاب وهو على منبر رسول الله ﷺ يخطب ويقول: «إن الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب وكان مما أنزل عليه: آية الرجم[1] فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمن أن يقول قائل: ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله في كتابه، فإن الرجم في كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان حمل أو الاعتراف، وأيم الله، لولا أن يقول الناس: زاد في كتاب الله لكتبتها»[2].

ومن أخطاء الزنا أيضاً:

أن يسلط الله الأمراض الفتاكة على من يفعل ذلك ويعلن به، فعن عبد الله بن عمر قال: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال، أعوذ بالله أن

---

(١) أراد آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) وهذه نسخ قراءتها وبقي حكمها.

(٢) جامع الأصول ص ٤٩٤ ج ٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تلكوهن: «ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، وولولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر – نقض – قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم» رواه ابن ماجه.

والحديث بليغ فإن لم يدرك عبد الله بن عمر هذا فقد أدركناه نحن في زماننا هذا ورأينا رأي العين نتائج التقصير بهذه الخصال الخمس، ولقد ابتليت أوربا بالأمراض الفتاكة لهذه المجاهرة بالفاحشة، وقد عبر عنها رسول الله ﷺ «بالطواعين» بالجمع حتى إذا عثر لواحد منها على دواء ظهر الآخر وهكذا في كل جيل يظهر طاعون جديد لم يكن في أسلافهم الذين مضوا.

الجاهلية تخطئ والإسلام يضع الحل:

مر معنا أن أهل الجاهلية كانوا يمارسون الزنا في السر ولا يتحرجون من ذلك، لكنهم كانوا يتحرجون من الزنا العلني، فحرم الإسلام الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكانت عند بعضهم أيضًا عادات قبيحة وهي أن يخلي الزوج بين زوجته وأحد المشاهير أو الأبطال لينكحها، لتلد منه ولداً فذاً بطلاً يحمل صفاته ولا يتحرج من هذا الفعل القبيح، ومع هذه الفوضى الجنسية بقيت سلالات عربية أصيلة تستنكر فعل هؤلاء لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «تنقلت من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» وفي رواية البخاري في الأدب المفرد قال عليه الصلاة والسلام: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وعند الطبراني مرفوعاً: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء» وحدث في صدر الإسلام أن وجد أولاد ولدوا في سفاح الجاهلية، منهم: زياد ابن أبيه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي ابن أبي سفيان، ويذكر الشيخ علي الطنطاوي خبره في قصة أدبية طريفة في كتابه «قصص من التاريخ» تحت عنوان «ابن الحب» وأمه سمية رومية كانت تمارس بيع الهوى في الطائف، فأحبها أبو سفيان وأقام معها حتى حملت منه، ثم غادرها وحفظت وديعته حتى أنجبت زياداً، ثم إن أبا سفيان أخبر علياً في زمن عمر بن الخطاب بعد أن ألقى زياد خطبة بين يديه، قال لعلي: إنه ابني، فقال علي: ما يمنعك أن تدعيه؟ فقال أبوسفيان: هذا القاعد على المنبر – يعني عمر بن الخطاب – حيث خشي منه، كما أورد الشيخ علي الطنطاوي أن أبا سفيان أخبر بذلك معاوية وقال: هذا أخوك... وأوصاه أن يقربه منه وينسبه إلى أبي سفيان في الوقت المناسب، وارتقى حال زياد بن أبي سفيان في زمن علي بن أبي طالب وعينه على خراج البصرة وأموالها ثم والياً على اقليم فارس وما حوله، وظل مخلصاً لعلي، ولما قتل علي رضي الله عنه استماله معاوية واعترف بنسبة إلى أبي سفيان، ثم ولاه البصرة ثم زاده خراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان، ولما قدم البصرة كان الفسق فيها ظاهر فخطب فيهم خطبة بتراء – لم يحمد الله فيها – هدد فيها وتوعد كما رغب وتودد ورسم فيها سياسته وقال: «واعلموا أني مهما قصّرت فإني لا أقصّر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمرًا – أي حابسًا جندكم في أرض العدو – لكم بعثاً» ومع ضبطه للأمور لمعاوية فإن فترة ولايته لا تخلو من كثير ظلم، فقد قتل على الشبهة، ومما يروى في ذلك أنه وَقَّت وقتًا بعد العشاء لا يرى فيه إنساناً خارجًا من بيته إلا قتله، وضبط شرطتُه أعرابياً فحاكمه زياد وقال له: هل سمعت النداء؟ قال الأعرابي: لا والله، قدمت بحلوبة لي – أي غنم فيها حليب – وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع، فأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير، قال زياد: أظنك والله صادقًا، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه. ولما ولي الكوفة سأل عن أكثر أهلها عبادة وتقوى فدل على رجل يقال له: أبو المغيرة الحميري فجاء به فقال له: الزم بيتك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا تخرج منه وأنا أعطيك من المال ما شئت، فقال: لو أعطيتني ملك الأرض ما تركت خروجي لصلاة الجماعة، فقال: الزم الجماعة ولا تتكلم بشيء، فقال: لا أستطيع ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأمر به فضربت عنقه، وروي عنه أيضًا أنه جمع أهل الكوفة فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر ليعرض عليهم البراءة من علي بن أبي طالب، هذا مع ما كان من علي من حبه وتقديره وتأميره على فارس وخراسان.

ثم إن زيادًا أرسل لمعاوية بن أبي سفيان وقال له: إني قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة وهو يريد بذلك أن يضم له الحجاز، فلما بلغ أهل الحجاز ذلك هرعوا إلى عبد الله بن عمر وشكوا إليه ذلك وخافوا أن يلي عليهم فيعسفهم كما عسف أهل العراق، فقام عبد الله بن عمر فاستقبل القبلة ودعا على زياد والناس يؤمّنون، فطُعن زياد بالعراق في يده، فكانت بثرة كالجمرة لم يطقها حتى كانت سببًا في موته.

أردت مما ذكرت أن ابن السفاح مهما صلح حاله يرتد إلى نهاية قبيحة ويعمل بأصله لذلك نهى النبي ﷺ عن الزواج بخضراء الدمن، وإنما أمر بالتخير للنطفة لتنبت في رحم طاهر، ومن هنا جاء حرص الإسلام على النقاء والعفاف والتشديد على منع الزنا، وفرض له أقسى العقوبات، لأنه يريد مجتمعاً طاهراً سويًا لا يؤثر العرق الدساس في أخلاقهم وسلوكهم. يعرفون حقوق بعضهم بعضاً ويتعاملون بالمحبة والتآخي كما أمرهم الله وأوصاهم.

ومما سببته الجاهلية أيضًا:

ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة «قالت: إن عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص: أنَّ ابن وليدة زمعة مني فاقبضه إليك، فلما كان عام الفتح أخذه سعد فقال: ابن أخي عهد إلي فيه، فقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي ولد على

www.alukah.net إعداد من شبكة الألوكة

فراشه، فتساوقا إلى النبي ﷺ فقال سعد: يا رسول الله ابن أخي قد كان عهد إلي فيه أنه ابنه، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه، فنظر النبي ﷺ إلى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبة، فقال النبي ﷺ: هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم قال لسودة بنت زمعة: احتجبي منه، لما رأى من شبهه بعتبة فما رآها حتى لقي الله عز وجل، وكانت سودة زوج النبي ﷺ»(١)

من هذا الحديث يتبين كم سبب الزنا من إحراج للولد كل واحد يدعيه ليلحقه به، وشرح القصة: أنه كان للجاهلية إماء يضربون عليهن ضرائب ويزنين، وهن البغايا اللاتي يكتسبن بالزنا، وكانوا يلحقون النسب بالزناة إذا ادعوا الولد، وكان لزمعة بن قيس أَمَة وكان يطؤها، وكان له عليها ضريبة فظهر بها حمل، وكان يُظن أنه من عتبة بن أبي وقاص، فإنه كان زنا بها وهلك عقبة كافراً ولم يسلم، فعهد إلى سعد أخيه أن يستلحق الحمل الذي بأمة زمعة، وكان لزمعة ابن يقال له: عبد، فخاصم سعداً في الغلام الذي ولدته أَمَةُ زمعة، فقال سعد: هو ابن أخي عتبة، على ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وقال عبد: هو أخي ولد على فراش أبي ومن أمته على ما استقر عليه حكم الإسلام، فقضى به رسول الله ﷺ لعبد، وأبطل حكم الجاهلية، وإنما قال لسودة احتجبي منه على سبيل الاستحباب لما رأى من شبهه بعتبة، وأنه ربما كان مخلوقًا من مائه.

وهذا أيضًا من أضرار الزنا فرغم أن حكم الإسلام قضى به لصاحب الفراش إلا أن ذلك الولد لم يكن خاليًا من الشبهة لذلك قال لسودة احتجبي منه رغم أنها ستكون أخته حسب قضاء النبي ﷺ لأن سودة هي بنت زمعة بن قيس، فيكون هذا المولود أخاها من أبيها ومع ذلك احتجبت منه للشبهة القائمة.

وفي قصة المتلاعنين التي حصلت في زمن النبي ﷺ حيث لاعن هلال بن أمية

---

(١) جامع الأصول رقم ٨٣٩١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

زوجته وقذفها بالزنا من شريك بن السحماء، وهنا أنكرت المرأة وفرق النبي بينهما، ولما ولدت وليدها نسب إلى أمه، وهكذا وقع هذا المولود في شر أعمال والدته التي جلبت له العار.

ومع أن الإسلام شدد على منع الزنا وبالغ في النكير والعقوبة على مرتكبيه، فإنه أيضًا لم يأخذ بالشبهة في هذا الأمر وإنما احتاج إلى يقين لخطورة عواقبه، فمنع الخوض في أعراض الناس، فمن رمى مسلماً أو مسلمة في عرضه كان جزاءه الجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبدًا، وأن هذه التهمة لا تثبت على أحد إلا بشهادة أربعة شهود عدول أو بإقرار أو بحمل كما مر في الحديث السابق، كما منع الإسلام المتشكك في أهله، فعند البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله ولد لي غلام أسود، وهو يعرّض بأن ينفيه، فلم يرخص له في الانتفاء منه، فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق - أي أسود - قال: نعم، قال: أنى ذلك؟ قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعل ابنك نزعته عرق»(١) فبرهن له عليه الصلاة والسلام بما أقنعه ليبعد عنه الشك طالما أنه لم ير من زوجته ما يدعو إلى الشك بها فتنهدم حياتهما ويعود ذلك بالوبال على أبنائه.

وفي الموطأ من حديث سليمان بن يسار قال: «إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يلحق - أولاد الجاهلية بمن ادعاهم في الإسلام، فأتى رجلان كلاهما يدعي ولد امرأة، فدعا عمر قائفًا - أي يعرف الآثار والشبه - فنظر إليهما فقال القائف: لقد اشتركا فيه، فضربه عمر بالدرة وقال: ما يدريك؟ ثم دعا المرأة وقال: أخبريني خبرك، فقالت: كان هذا لأحد الرجلين يأتيها وهي في إبل لأهلها فلا يفارقها حتى يظن وتظن أن قد استمر بها الحمل، ثم انصرف عنها، فهريقت عليه الدماء - أي حاضت بعد

---

(١) جامع الأصول رقم ٨٣٩٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك - ثم خلفه الآخر، فلا أدري: من أيهما هو؟ فكبر القائف، فقال عمر للغلام: وال أيهما شئت»(١) وعند أبي داود عن رباح قال: «زوجني أهلي أمة رومية، فدخلت بها فولدت غلاماً أسود مثلي فسميته: عبد الله، ثم وقعت عليها فولدت لي غلاماً أسود مثلي فسميته: عبيد الله، ثم طبن لها - أي أفسدها علي - غلام من أهلها رومي يقال له: يوحنّة، فراطنها بلسانه فولدت غلاماً كأنه وزغة - شديد البياض - من الوزغات فقلت لها: ما هذا؟ قالت: هذا ليوحنه، فرفعنا إلى عثمان بن عفان، فسألهما، فاعترفا، فقال لهما: أترضيان أن أقضي بينكما بقضاء رسول الله ﷺ؟ إن رسول الله ﷺ قضى: أن الولد للفراش، فجلدها وجلده وكانا مملوكين» فهذه المرأة أدخلت على بيت رباح ولداً ليس منهم ولكن بما أنها ولدته وهي على ذمة رباح فإنه ألحق به رغم اعترافها بالزنا من غيره ورغم شكله الذي يخالف شكل أبيه وأخوته عبد الله وعبيد الله، وهذا من قبيح فعل الزنا وما يجلبه من مهانة ومذلة وقد توعد النبي ﷺ مثل هذه المرأة فقال: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة»(٢) وأن سلامة النسب ونقاءه يعد مفخرة المسلمين ويدعو إلى الفخر والسرور ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ دخل علي مسروراً تبرق أسارير وجهه، فقال: ألم تري أن مُجَزِّزاً المدلجي نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض وذلك أن زيد بن حارثة كان أبيض مثل القطن وكان ابنه أسامة أسود مثل القار، وهذه شهادة من القائف مجزز المدلجي بصحة النسب مما أدخل السرور على النبي عليه الصلاة والسلام لحبه لهما.

---

(١) جامع الأصول ٨٣٩٩.

(٢) جامع الأصول ٨٤٠٥.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الحاقدون على الإسلام والمسلمين يعملون على سلب هذه الميزة منهم

لقد ثبت أن أمة الإسلام هي أكثر الأمم محافظة على طهر النسب ونقائه لذلك حقد عليهم غيرهم وعملوا للنيل من نسبهم وشرفهم، فقامت دعوات السفور والاختلاط لتستوي بذلك كل الأمم، فلا فخر لأمة على الأخرى بهذا الشرف السامي، ولقد عجزت أمم كثيرة عن بلوغ هذا الشرف فلم تستطع أن ترتفع إليه، ولما رأت ذلك تآمرت على المسلمين ليهبطوا هم إليها، ولقي هذا الأمر أذناً صاغية من بعض المسلمين(١) وانجرفوا في هذا التيار يحققون للأعداء هدفهم ومبتغاهم غير مكترثين بشرف أمتهم، وانخرط بعضهم في جمعيات ونواد لأجل هذا، وظهرت فرق هدامة تدعوا إلى هذا العمل القبيح أيضًا، ففي القرن التاسع عشر ظهرت الدعوة البابية في إيران وهي دعوة تعمل على نشر أفكار معادية للإسلام باسم الإسلام بدعوى ظهور المهدي المنتظر والباب الذي يحجبه ويتلقى عنه، فكان من دعوته نسخ الشريعة الإسلامية وانتهاء دورها وإحلال أفكار أخرى ابتدعوها بدلاً منها، وعَطّل الباب كثيراً مما جاء في الشرع وألغى كما يدعي القرآن وأباح الاختلاط، ولما حوكم وقتل لما اقترف خلفته دعوة أخرى هي البهائية، وكان فيها امرأة داعرة سموها «قرة العين» دعت بكل قوة إلى رفض إجراءات الزواج وشيوعية المرأة بين الرجال بلا قيد وبدأت بهذا العمل المنكر بنفسها ضاربة المثل في الانحلال والفوضى الجنسية، ثم قُتلت هي الأخرى حرقاً.

وفي بداية القرن العشرين ظهرت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة بزعمه، وتلقى دعمًا أجنبيًا لدعوته هذه، وذلك من أجل النيل من عفة المسلمين وشرف نسبهم.

يقول محمد قطب في كتابه واقعنا المعاصر: «فقد أثار كتاب «تحرير المرأة» معارضة عنيفة جعلت قاسم أمين ينزوي في بيته خوفاً ويأسًا ويعزم على نفض يده من

---

(١) اقرأ كتاب الصحافة والأقلام المسمومة للأستاذ أنور الجندي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الموضوع كله ولكن سعد زغلول شجعه وقال له: امض في طريقك وسوف أحميك وعندئذ قرر أن يعود وأن يسفر عن وجهه تماماً ... وصار يقول: إن المرأة المصرية ينبغي أن تصنع كما صنعت أختها الفرنسية»(١) ونحن نعلم ما صنعت الفرنسية ولا حاجة لذكر ما يقزز النفس.

القرامطة:

قوم خرجوا على الإسلام وادعوا رغم ذلك مناصرتهم لآل البيت ولكن الحقيقة غير ذلك؛ إنهم تجمعوا على كراهية الإسلام والمسلمين، وخلطوا عقيدتهم بتعاليم مجوسية وهندية وجاهلية، ظهروا في أطراف العراق والشام وجزيرة العرب وعاثوا فساداً في الأرض يقتلون وينهبون وينشرون الفاحشة أنى حلوا وأنى ارتحلوا، ويروي التاريخ قصة لامرأة شريفة وقعت في أسرهم مع أهلها وإخوتها، فقتلوا الجميع وأبقوها في أسرهم ثم تعاقب على الزنا بها أربعة من قادتهم ولما جاء وقت ولادتها طلبوا امرأة من بين الأسرى في معسكرهم تجيد التوليد فخرجت امرأة وقامت بأمرها حتى وضعت وليدها ثم جاء زوجها الأول مهنئًا فقدم هدية وخرج ثم دخل الزوج الثاني مهنئًا وقدم هدية وخرج ثم الثالث فالرابع واستغربت المرأة ما رأته من أمر هؤلاء فسألت أم الولد عن هؤلاء الأربعة، فأخبرتها عن أمرها وقتل جميع أفراد أسرتها واستبقائها هي لجمالها ثم قالت: هؤلاء الأربعة هم أزواجي، وماذا أفعل تمنيت الموت مراراً... من هذه القصة المختصرة (٢) نرى أن عقيدة هؤلاء تبيح شيوعية النساء، ولم يكن عند هؤلاء أدنى كرامة في أن يشاركوا بزوجة واحدة، وأن يشاركوا أيضًا في ولد واحد، فلمن ينتسب هذا المسكين؟ وكيف تكون حال الأمة لو شاعت هذه الأفكار؟ ولكن انسلاخ الإنسان عن أهم مقوم له في حياته وهو عقيدته الإسلامية، جعلت هؤلاء الناس في مصاف

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٥٣.

(٢) تمام القصة مفصلة في تاريخ الطبري ج ١٠ ص ١٠١.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحيوانات، لا كل الحيوانات وإنما أنواع خسيسة منها كالخنزير.

ما حصل في أمة الفرس قبل الإسلام:

في عصر قباذ وكسرى والد أنو شروان ظهر رجل يدعى مزدك يدعو إلى أفكار جديدة لم يعهدها من قبل الفرس، زعم فيها المساواة بين الناس بكل شيء وقال: إنه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى بها من غيره، واستغل السفهاء والجهلة قوله هذا فكاتفوه وشايعوه حتى قوي أمرهم ودخل معهم الملك قباذ في ذلك، وأصبح لهم سلطان يمنعهم فكانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ولا يستطيع الامتناع منهم فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه وقالوا لقباذ: إنك أثمت مما عملت في الماضي ولا يطهرك إلا إباحة نسائك حتى إن كسرى ولد قباذ رجا مزدك ألا يقرب أمه وقبّل من أجل ذلك رجليه النتنتين كما يروي..

وعند الطبري أن هذه من تعاليم زرادشت، وأن مزدك قد تابعه على ذلك ودعا العامة إلى هذا الأمر ثم يقول: «فحض بذلك السفلة على العلية واختلط له أجناس اللؤماء بعنا صر الكرماء وسهل السبيل للغصبة إلى الغصب وللظلمة إلى الظلم وللعّهار إلى قضاء نهمتهم والوصول إلى الكرائم اللائي لم يكونوا يطمعون فيهن وشمل الناس بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثله..

ثم إن كسرى أبطل بدعتهما وقتل بشراً كثيراً ثبتوا عليها واستمر كسرى دهراً يعمل لإزالة هذه الخطيئة التي استمرت عشر سنين، وكان مما عمله، أن جمع رؤوس المزدكية وضرب أعناقهم، وردوا الأموال إلى أهلها وأمر بكل مولود اختلف فيه أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه وأن يعطى مال لكل رجل يتبنى مولوداً من هؤلاء، وأن ترد كل امرأة إلى زوجها لأنها كانت مكرهة ومن لم تكن متزوجة من قبل تخير بين من غصبها لتبقى عنده أو أن تتزوج من غيره إلى آخر ما هنالك من أمور.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تحصلت ومن تعقيدات اضطرت الملك أن يقضي فيها، وأن يربي على نفقة الدولة أعداداً كبيرة لم يتبناهم أحد.. فضاعت أنسابهم وضربوا مثلاً في الوضاعة والإباحية والحقارة، وكانت الأمم الأخرى تضرب بهم الأمثال في قلة الأصل والشرف...

اليهود في الماضي والحاضر:

قلل اليهود من شأن العرض والشرف قديمًا، وظهر هذا في كتبهم القديمة التي خطوها بأيديهم، واستخدموا نساءهم في الوصول إلى مآربهم وأهوائهم دون مبالاة بما سيعود عليهم هذا العمل المهين من تحطيم سمعتهم بين الأمم، ثم لما رأوا أنهم انغمسوا في الفساد من أخمص قدميهم إلى أعلى آذانهم شرعوا في بث دعوى الفساد بين الأمم، وجعلوا هذا من أسس سيطرتهم على العالم، ففي سفرا لتكوين اتهموا لوطًا بالزنا ببناته وذلك بعد أن دمر الله قوم لوط ونجاه مع أهله فبات مع ابنتيه في مغارة، قالت البكر للصغيرة: «أبونا شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا كعادة كل أهل الأرض، هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.. وفعلت مثلها الصغيرة، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما كل منهما بغلام ومن هذين الغلامين تفرع شعبان هما شعب المؤابيين وشعب العمونيين[1] فمن هذا تبين مدى استرخاص اليهود للعرض طالما اتهموا بذلك نبيًا مع ابنتيه، فإذا فعل هذا باقي الناس فلا شيء فيه بزعمهم، ومثل هذا في كتبهم كثير وهم اليوم يشيعون الفساد في أرجاء الأرض بكل وسيلة ممكنة لتحقيق أطماعهم في السيطرة على العالم، وخصوصاً في السينما والتلفزيون يقول الكاتب أنور الجندي: «ونحن نعرف أن السينما العالمية كلها في قبضة اليهود إلا قليلاً مما هو خاضع لأهدافهم وأساليبهم، وليست سيطرة اليهود على صناعة السينما إلا أمراً مبيتاً وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى أنه

---

(١) سفر التكوين أصحاح ١٩ فقرات ٣٠ – ٣٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واحد من أهدافها في إشاعة الرذيلة في المجتمعات لتخريبها وتدميرها، فإن الغرض من أفلام الهوس الجنسي الرائجة الآن واضح، هو إدخال الأمة الإسلامية في مرحلة الانهيار الخلقي والاجتماعي»(١). ثم يقول أيضًا: لقد كشفت الأبحاث الاجتماعية الرصينة عن أن الأفلام السينمائية مدخل خطر إلى تحسين الخبائث التي نهى الإسلام عنها وتزيينها في نظر الناس، وأنها تتخذ إلى هذه الغاية وسائل ماكرة باسم تحرير المرأة ومساواتها وإنصافها أو تحرير الغرائز والأهواء أو إطلاق الغرائز من عقال التقييد والتنظيم، وكل هذا يدخل في تخطيط الماسونية الذي يستهدف انتزاع عقائد الناس ومكارم أخلاقهم»(٢).

ولقد حذر النبي ﷺ من **فتنة النساء**:

فعند مسلم عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»(٣) وفي الحديث المروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»(٤).

وإن اتقاء الفتنة يكون بالآتي:

١ - طلب الزواج لمن ملك الباءة وذلك ليعف نفسه، ففي الحديث «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(٥).

---

(١) أنور الجندي الصحافة والأقلام المسمومة ص ١٢٥.

(٢) السابق ص ١٣٥.

(٣) صحيح مسلم ج ١٧ ص ٥٤.

(٤) السابق ص ٥٥. (٥)

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ ـ واتقاء الفتنة هذه يكون بغض البصر: قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾(١)

ففي غض البصر من كلا الجنسين نحو الآخر هدوء للنفس وطمأنينة لها وسلامة من الوقوع في المحظور، وغض البصر من صفات المؤمن والمؤمنة، وفي الحديث عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «النظرة سهم من سهام إبليس من تركها من مخافة الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» رواه الحاكم وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه» وفي وصية النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه قال: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الأخرى»(٢)

وعن جرير بن عبد الله قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فقال: «اصرف نظرك» رواه مسلم، وفي الحديث أيضًا: «العينان تزينان وزناهما النظر»(٣) ورب نظرة أورثت ندامة وجعلت صاحبها في سوء فنقلب، ويروى أن جارية جميلة سألت رجلاً واقفًا بباب كبير: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فأعجبه جمالها وافتتن بها فقال لها: هذا حمام منجاب، ادخلي فدخلت ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعهما وقالت لتخدعه وتتخلص مما أوقعها به: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقربه عيوننا، فقال

---

(١) سورة النور ٣٠ ـ ٣١.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٣) رواه مسلم وهو جزء من حديث طويل انظر رياض الصالحين رقم ١٦٢٠.

شبكة الألوكة www.alukah.net

لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين. وخرج وترك الدار ولم يغلقها فاشترى ما طلبت منه وعاد، فلم يجدها في الدار وقد خرجت، فهام بها وأكثر الذكر لها وجعل يمشي في الطريق والأزقة ويقول:

يا رب قائلة يوماً وقد تعبت أين الطريق إلى حمام منجاب؟

ثم ساءت حاله وأصبح يهذي بهذا البيت حتى مات وكان آخر كلامه عند الموت بدل ذكر لا إله إلا الله فمات وقد خسر الدنيا والآخرة وذلك بسبب نظرة مغرضة.

ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال أريدك، قالت: لماذا قال: قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبداً قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك قال: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر الرجل ليتزوجها وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه، فمات فلم يظفر بها، وفاته دينه وخسر الدنيا والآخرة.

فما أحرانا أن نتعلم من هذه القصص ونلتزم منهج الإسلام، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد» رواه مسلم، ومعناه ألا يناما معاً متجردين في ثوب واحد أو غطاء واحد، وذلك لئلا تثور الشهوة فيهما.

ومما يروى في كتب التفسير عن قصة الملكين(١) اللذين افتتنا بامرأة جميلة حين نظرا إليها، فراوداها على نفسها، فقالت: لا حتى تتكلما بكلمة الكفر قالا: والله لا

---

(١) هاروت وماروت ورد قصتهما في سورة البقرة آية ١٠٢. انظر فتح القدير للشوكاني.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نشرك بالله أبداً، فذهبت عنهما ثم رجعت إليهما ومعها صبي تحمله، فسألاها نفسها فقالت: لا حتى تقتلا هذا الصبي فقال: والله لا نقتله أبداً فذهبت ثم رجعت بقدح من الخمر تحمله، فسألاها نفسها فقالت: لا حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي، فلما أفاقا قالت: والله ما تركتما من شيء أبيتماه علي إلا فعلتماه حين سكرتما.

كل هذا بسبب فتنة النساء، والسعيد من اتعظ بغيره.

٣ - واتقاء فتنة النساء يكون أيضًا بالابتعاد عن مواطن الريبة، وهذه المواطن التي يحصل فيها اختلاط الجنسين، فقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو، الموت» والحمو: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج كابن العم ونحوه، واتفق أهل اللغة على أن الأحماء: أقارب زوج المرأة كأبيه(١) وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه وابن أخته. وقال عليه الصلاة والسلام «لا يبيتن رجل عند امرأة إلا أن يكون ناكحًا أو ذا مَحْرم(٢)» أي أن يكون زوجها أو مَحْرمًا لها، والمَحْرم من يحرم له نكاحها على التأبيد. وقال عليه الصلاة والسلام «لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو رجلان» وهذا أيضًا لابعاد الريبة عن الرجل فيما لو دخل منفردًا، والمغيبة: التي غاب عنها زوجها لسفر طويل أو قصير ويصح أن يكون لمن كان زوجها غائباً مطلقًا عن البيت فلا يصح الدخول عليها إلا بحضرة رجل أو رجلين من أهل الخير والصلاح وعدم وقوع المواطأة منهم على الفاحشة، أما أهل الريبة فلا، حتى وإن كانوا جمعاً كثيرًا، وقصة هذا الحديث كما ذكرها مسلم في صحيحة أن نفرًا من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس، فدخل أبوبكر الصديق - وأسماء يومئذ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) يستثنى أبو الزوج من المنع لأنه محرم.

شبكة الألوكة www.alukah.net

زوجته – فرآهم فكره ذلك، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ وقال: لم أر إلا خيراً، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد برأها من ذلك» ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان»(١)

ومواطن الريبة بالنسبة للمرأة أن تدخل بيتاً فيه شبهة أو لا نساء فيه وأن تخلو بأجنبي دون محرم ثالث لهما، وأن تسافر دون محرم مرافق، ففي الحديث «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» وفي الحديث المتفق عليه عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم» فقال له رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال: «انطلق فحج مع امرأتك» وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها» متفق عليه.

وعلى النساء ألا يُدخلن بيوتهن غير محارمهن مهما كانت صفة الداخل وإن كن جمعاً كثيراً ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، فكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، قالت فدخل النبي ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يعرف ما ههنا لا يَدْخُلَنَّ عليكن، قالت: فحجبوه» وذلك لأنه ينشر الفاحشة خصوصاً إذا وصف ذلك للرجال فعند ذلك يثير فيهم الشهوة كأنهم يرون الموصوفة رأي عين، ولهذا منع المرأة أن تصف لزوجها امرأة أخرى فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها»(٢).

---

(١) صحيح مسلم ص ١٥٥ ج ١٤.

(٢) رياض الصالحين ص ٦٥٩ – متفق عليه –

شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ – وانتشاء فتنة النساء يكون بالإعراض عن دعاة السوء وما يروجون من أفكار وشعارات مناهضة لتعاليم الإسلام مثل «حرية المرأة» وإنصاف المرأة من الرجل» حيث سخر هؤلاء كل إمكاناتهم لهتك حرمة المرأة وقذفها في مستنقع الفساد، فهم يحاولون دائمًا إغراءها وتزيين الفساد لها بكلمات معسولة براقة لكي تترك دينها وجماعتها التي ترعاها وتحافظ عليها، لكي يتلقفوها وينفردوا بها ويفعلوا بها ما يشاؤون ولكي يتاجروا بعرضها وشرفها ويجنون من ذلك المال لأنهم باعوا جسدها بكل وسيلة.

يقول أحد الشعراء الذين ادعوا نصرة المرأة حين قدم كتابه «امرأة لا مبالية» إلى طالبات الجامعة الأمريكية: إنه كتابكن، كتاب كل امرأة حكم عليها هذا الشرق الغبي الجاهل بالإعدام، ونفذ حكمه فيها قبل أن تفتح فمها، ولأن هذا الشرق جاهل ومعقد يضطر رجل مثلي أن يلبس ثوب امرأة ويستعير كحلها وأساورها ليكتب عنها..) فما ذا كتب عنها؟ قال: لو كنت حاكما لألغيت مؤسسة الزواج وختمت أبوابها بالشمع الأحمر» لماذا؟ لأنه لا يريد أن يكون في مجتمعنا زواج شرعي وإنما إباحية مطلقة فهل هذا لصالح المرأة يا ترى؟ وهل هذا لنصرة المرأة أم لاستعبادها للرجال لتبقى ملكهم طالما هي جميلة رشيقة فإذا فرغوا منها ألقوها والتفتوا إلى غيرها... أما الزواج فيبقى أبديًا ويبقى كل زوج وفياً للآخر طول العمر يشبان معاً ويهرمان معاً.. وهذا لا يريده هذا الماكر الذي يدعو ظاهراً إلى نصرة المرأة، ولكنه يخفي حقده وأنانيته وحبه لامتلاك الكثير منهن لكي يتمتع بمن شاء ويلقي ويرفض من شاء.. ويقول أيضًا: «العري أكثر حشمة من التستر» ويقول أيضًا: «مع حبيبتي لا أخرج من الغرفة ومع زوجتي لا أدخل الغرفة أساساً» أرأيتم صدق دعوته لإنصاف المرأة؟! وتحت دعوى «حرية المرأة» انخرطت الفتاة الجميلة (ش) في سلك التمثيل وتطلع إليها لصوص الشرف والجسد، فما زالوا بها حتى مثلت دوراً وهي عارية تماماً ولما أحست بخطئها وأرادت التوبة والعودة إلى جماعة المسلمين نهشتها الكلاب

www.alukah.net

أبرزوا للناس ما كان قد خفي عليهم منها، إنهم يريدونها لأنها كسب لهم، ترى لو كانت قبيحة ذميمة أكانوا يحتفون بها إلى هذا الحد؟! إنهم يتصيدون الجميلات بدعوى «حرية المرأة».

٥ – واتقاء فتنة النساء يكون بعدم التشبه أحدهما بالآخر والتزام اللباس الساتر المناسب.

فعن ابن عباس قال: «لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وفي رواية: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(١) رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل»(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

فالملابس يجب أن تكون مناسبة لكلا الجنسين وينسحب هذا أيضًا على بعض الأعمال التي فيها تشبه ظاهره، كأن تعمل الفتاة في الشرطة أو الجيش وهذا يحتم عليها ارتداء الزي الذي يرتديه الرجال إضافة إلى سفورها واختلاطها وتبرجها ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»(٣) رواه مسلم.

وهذان الصنفان ظهرا في العصر الحديث، في سجون الإرهاب والتعذيب حيث تستعمل سياط كأذناب البقر وكذلك في ما ظهر من أزياء النساء المختلفة وصالات عرضها، ثم في الطرقات، حتى فشا في بلاد الفساد هذا اللون من النساء، المائلات المميلات إلى آخر ما وصفهن به الحديث الشريف.

(١، ٢، ٣) رياض الصالحين أرقام ١٦٢٩ – ١٦٣٠ – ١٦٣١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٦ – واتقاء فتنة النساء يكون بالبقاء مع جماعة المسلمين، فلا يسافر مسلم إلى بلدان الكفر إلا للضرورة القصوى، فالذئب يأكل من الغنم الشاة القاصية والمؤمن قوي بإخوانه ينصحهم وينصحونه، فلا ينفرد به الأعداء في بلاد الغربة وكم من شاب ضاع هناك بسبب النساء وتعاطي المسكرات والمخدرات.

هذا بالنسبة للشاب فما بالك بالنسبة للفتاة إذا سافرت بقصد الدراسة وحدها؟! وهذا ما حصل في بلاد عربية أو مسلمة، حيث بدأت الأسرة ترسل ابنتها وحيدة فريدة إلى بلاد الكفر لتتعلم، فمنهن من يرجع وقد خلعت عنها لباس الحياء والوقار وعادت وقحة سافرة تتكلم بلسان الأعداء، ومنهن من يبقى هناك وتتعلق برجل على غير دينها وتضل، وكأنما باعها أهلها للشيطان، وقد ذكر لي رجل سافر إلى لندن للعلاج والتقى بفتاة مغربية تذكر أنها من أسرة مسلمة محافظة خرجت للعمل فضاعت هناك ولما سألها هل أنت متزوجة أجابت نعم من رجل نصراني ولما اعترض على ذلك وأنكر قالت: لم أجد غيره، فإلى مثل هذه أقول من الذي اضطرها إلى السفر وإلى ترك أسرتها المحافظة كما تدعي لتقع في أحضان رجل كافر...؟! فأين الإيمان وأين الغيرة؟ فقد كانت المرأة المسلمة تفضل المسلم على غيره ولو كان أسود كأن رأسه زبيبة، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾(١) وفي الحديث الشريف المتفق عليه: «لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»(٢) فإن مثل هذه الأمور تحرك

---

(١) البقرة: ٢٢١.

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود ص ٧٨ ج ١٧.

www.alukah.net شبكة الألوكة

لقد احتاط الإسلام كثيراً في قطع كل السبل الموصلة للزنا فبدأ بغض البصر وبستر العورة وعدم اختلاط الرجال بالنساء وعدم سفرها دون محرم، كما أمرها ألا تخرج من بيتها متعطرة متزينة فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية»(١) وعلى المرأة أن تبادر إلى الالتزام بما أراد الإسلام لتكون ناجية من عذاب الله وغضبه، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»(٢) وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص بسند صحيح قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران، فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار فقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان» أي عددهن في الجنة قليل وذلك لا نسياقهن إلى الفتنة بسرعة إلا من عصم ربي من المؤمنات الصالحات اللاتي التزمن بشرع الله الحنيف، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٣) اللهم اهدنا لا تباع شرعك وهدي نبيك محمد ﷺ.

وقد ألحق بهذا الباب **اللواط**:

وهذا معناه أن يأتي الذكر الذكر وقد أنكر الإسلام هذه الفعلة أشد النكير، حتى إن خالد بن الوليد استفتى أبابكر في رجل وجده يُفعل به هذا فكان أن أخذ أبوبكر

---

(١) رواه الترمذي ص ج ٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الممتحنة ١٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

برأي علي حيث قال: حرقوه، لكن عند جمهور فقهاء المسلمين أن يكون عقابه مثل عقاب الزنا أما ابن تيمية فقال: والصحيح الذي اتفقت عليه الصحابة أن يقتل الأثنان الأعلى والأسفل – أي الفاعل والمفعول به – سواء كانا محصنين أو غير محصنين، ففي الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط» ولقد عاب الله قوم لوط فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فظهر أنها فاحشة شنيعة ابتدعها قوم لوط فكان جزاؤهم أن خسف الله بهم الأرض وقذفهم بحجارة من السماء فسحقاً لهم من قوم سوء فاسقين، وإن بعض بلاد الغرب الذين أقروا علناً أو رسمياً هذه الأفعال المنكرة من اللواط قد ابتلاهم الله بمرض نقص المناعة – الايدز – فقد وجد أن نسبة كبيرة من الذين يمارسون اللواط يصابون به، وهو مرض خطير مؤلم ليس له دواء شاف حتى الآن.

---

(١) رواه أهل السنن وصححه ابن حيان.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوصية : الخامسة

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾

جاء في تفسير ابن كثير حول قتل النفس: وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث، الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» وعند أبي داود والنسائي قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان محصن يرجم ورجل قتل متعمداً فيقتل ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض، وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه أو قتل نفساً بغير نفس» فو الله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً فبم تقتلونني؟! وكذلك جاء النهي والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب فروى البخاري عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ مرفوعاً «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيره أربعين عاماً» انتهى كلام ابن كثير(١).

أقول: وهذا توجيه حسن وجه إليه ابن كثير وإن لم ينص عليه صراحة، وهو أن توجيه هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ هو أمر بالنسبة للحاكم وولي الأمر الذي ينفذ شرع الله وليس هذا خطاباً للأفراد، لذلك قال: إلا بالحق وبينت الأحاديث السابقة موجبات القتل وقال في فتح القدير: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا

(١) ابن كثير ص ١٨٩ ج ٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿النَّفْسَ﴾ اللام في النفس للجنس، و﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ صفة للنفس أي: لا تقتلوا شيئًا من الأنفس التي حرمها الله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا بما يوجبه الحق، والاستثناء مفرغ: أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق، أولا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً وقتلها بسبب زنا المحصن وقتلها بسبب الردة ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها. اهـ فتح القدير.

أقول: إن أمر النهي هنا أمر عام في قتل النفس خاص في من يتولى أمر المسلمين بأن لا يقتل النفس إلا بالحق الموجب للقتل، وليس هذا خطاباً للأفراد كما في المنهيات السابقة وهي عدم الشرك والإحسان إلى الوالدين عدم قتل الأولاد من إملاق وعدم اتيان الفواحش، فتلك المنهيات خطاب للجميع أي لجميع المؤمنين، أفراداً وجماعات وأولياء أمور، إنما في القتل هو نهي لعموم القتل لجميع المؤمنين وتقبيح للقتل بغير الحق، وهو نهي أيضًا على وجه الخصوص لولي أمر المسلمين ألا يباشره إلا بالحق، لأن من له سلطة الحكم هو ولي الأمر لا أفراد المسلمين، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان الآمر في تنفيذ العقوبات بعد الحكم عليها، وكذلك خاطب الله نبيه داود فقال: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(١).

وكل من يتولى أمر المسلمين هو الذي يعمل على تطبيق شريعة الله فينفذ العقوبات بالجناة والمجرمين ومن استحقوا ذلك بحكم الشرع، وقد ورد في تعريف الإمامة أي الخلافة لبعض الفقهاء: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به» ولذلك على ولي الأمر ألا يمتنع من إقامة حدود الله. ومن هذا نخلص بأن الأمر في تنفيذ أحكام الله لولي الأمر لا للأفراد، وإلا فستقع الفتن بدعوى أخذ كل إنسان حقه بتنفيذ العقوبة بغريمة، لذلك ورد في المغني «لا يجوز استيفاء

---

(١) سورة ص آية ٢٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القصاص إلا بحضرة السلطان» وذلك حتى لا يتجاوز ولي المقتول في تعذيب القاتل قبل قتله أو التنكيل به أو ضربه بسيف مفلول ومع ذلك فإنه لا يصح لولي المقتول تنفيذ القتل إلا بحكم من ولي الأمر ففي صحيح مسلم أن رجلاً أتى النبي ﷺ يقود آخر بنسعة فقال يا رسول الله هذا قتل أخي فقال له رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» فقال: إنه لو لم يعترف أقمت عليه البينة، قال: نعم قتلته، قال: «كيف قتلته؟» قال: كنت أنا وهو نختبط من شجرة - أي نضربها بالعصا ليسقط ورقها - فسبني فأغضبني، فضربته بالفأس على قرنه، فقتلته، فقال له رسول الله ﷺ: «هل لك من شيء تؤديه عن نفسك؟» قال: ما لي من مال إلا كسائي وفأسي، قال: «أترى قومك يشرونك؟» قال: أنا أهون على قومي من ذلك، فرمى إليه رسول الله ﷺ بنسعته - وهو سير من الجلد تربط به الدابة وقال: «دونك صاحبك» فانطلق به الرجل فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «إن قتله فهو مثله» فرجع الرجل إليه فقال: بلغني أنك قلت إن «قتله فهو مثله» وما أخذته إلا بأمرك فقال رسول الله ﷺ: «أما تريد أن يبوء باثمه وإثم صاحبك؟» قال بلى يا نبي الله، فإن ذاك كذلك، قال فرمى بنسعته وخلى سبيله»(١)

من هذا نستنتج:

١ - أنه لم يدفعه إلى ولي المقتول إلا بعد صدور الحكم.

٢ - إنه أوقف التنفيذ ندبًا لوجود الشبهة فهناك رواية أخرى لأبي داود فيها: «ضربت رأسه بالفأس ولم أرد قتله» وفي رواية الترمذي «ما أردت قتله».

٣ - نستنتج أيضًا أنه لم يكن عند الرسول ﷺ جلاد ولا سجن، فكان يسلم من يقام عليهم الحد لبعض أصحابه ويطلب منهم التنفيذ، لكن المصلحة فيما بعد جعلت الحاكم يتخذ سجناً وجلاداً يجيد القتل.

٤ - يجوز في القصاص أن يعفو الولي أو أحد الأولياء، ولكن العفو لايجوز في

---

(١) جامع الأصول رقم ٧٧٧١.

شبكة الألوكة www.alukah.net

الحدود التي فيها حق لله ولو رضي المجني عليه، مثل: الزنى والقذف وشرب الخمر والسرقة والحرابة والردة والبغي، فإذا وصلت إلى الحاكم وصدر الحكم فلا عفو فيها، فعن أنس قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بعفو»(١)

فعن صفوان بن أمية قال: «إن رجلاً سرق بردة له فرفعه إلى النبي ﷺ، فأمر بقطعه فقال: يا رسول الله قد تجاوزت عنه، فقال: أبا وهب أفلا كان قبل أن تأتينا به؟! فقطعه رسول الله ﷺ(٢) وفي الموطأ عن الزبير بن العوام، أنه لقي رجلاً قد أخذ سارقاً وهو يريد أن يذهب به إلى السلطان، فشفع له الزبير ليرسله، فقال: لا حتى أبلغ به السلطان فقال الزبير: إنما الشفاعة قبل أن يبلغ إلى السلطان فإذا بلغ إليه فقد لعن الشافع والمشفع»(٣).

تحريم إراقة الدماء:

علمنا أن الآية السابقة ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ هي توجيه للسلطان بتنفيذ القصاص والحدود الموجبة للقتل ممن يستحق ذلك وهي نتيجة لارتكاب موجب القتل، أو العدوان الموجب للقتل، فما موقف الإسلام من هذا العدوان ابتداء؟ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٤) وقال أيضاً ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾(٥) فإلى جانب العذاب المعد له في الآخرة لجريمته فإنه استوجب في الدنيا القصاص، ولقد

---

(١) جامع الأصول رقم ٧٨٠٣.

(٢) المصدر نفسه ١٩٣٠.

(٣) المصدر نفسه ١٩٢٩ وهو حسن.

(٤) النساء ٩٣.

(٥) الإسراء ٣٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اختلف الفقهاء في حكم توبة القاتل، هل تقبل أم لا؟

ففي المسألة قولان: إن توبته لا تقبل للآية السابقة ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ وهي من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء.

وفي قول أكثر أهل العلم: أن توبته مقبولة، قال في المغني: ولنا: قول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ فجعله داخلاً في المشيئة وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ وفي الحديث عن النبي ﷺ: إن رجلاً قتل مائة رجل ظلماً ثم سأل هل له من توبة؟ فدل على عالم فسأله فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة ولكن اخرج من قرية السوء إلى القرية الصالحة فاعبد الله فيها فخرج تائباً فأدركه الموت في الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فبعث الله إليهم ملكاً فقال قيسوا ما بين القريتين فإلى أيهما كان أقرب فاجعلوه من أهلها فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر فجعلوه من أهلها» ولأن التوبة تصح من الكفر فمن القتل أولى، والآية محمولة على من لم يتب، أو على أن هذا جزاؤه إن جازاه وله العفو إذا شاء. اهـ كلام المغني.

أقول: إن القتل حق تعلق بذمة القاتل للعبد المقتول ولهذا فإن توبة القاتل تسقط حق الله سبحانه وتعالى ويبقى حق العبد، وعند الحساب يرضي الله سبحانه وتعالى المقتول بما يجعله يتنازل عن حقه فيعفو ويصفح. فإذا كان الدين وهو أسهل من القتل وإزهاق الروح، يبقى معلقًا بذمة المدين ولا يغفر له ذلك إلا بالأداء أو بالمسامحة من الدائن، فدم العبد المقتول أيضًا يبقى بذمة القاتل ولا يزول إلا بالعفو أو بالأداء من الحسنات حتى يرضى ويصفح.

شبكة الألوكة www.alukah.net

أول جريمة قتل على وجه الأرض:

ولقد وقعت جريمة القتل الأولى في عهد آدم المبكر، في خصام هابيل مع قابيل فذكر القرآن تفصيل هذه القصة، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١)

فكانت هذه الجريمة دافعها الحقد والحسد على أخيه، حيث تقبل الله قربانه، وهذا معناه الرضى عن قابيل والموافقة على قسمة آدم وعدم تقبل قربان هابيل، وهذا معناه أنه كان مخطئًا لعناده ومخالفة والده، لكنه رفض ذلك وعاند وخرج عن أمر الله فكان عصيانه مزدوجًا، كفرٌ وقَتْل، لذلك كان من الخاسرين ثم قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(٢) وقد سن هابيل سنة سيئة في البشرية، لذلك عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه سن القتل أولاً»(٣) وفي رواية «لأنه أول من سن القتل» رواه البخاري ومسلم وغيرهما وقد عظم الله حرمة دم الرجل المؤمن فعن بريدة قال: قال النبي ﷺ: «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»(٤) رواه النسائي وهو حسن، وفي رواية

---

(١) المائدة ٢٧ – ٣٠.

(٢) المائدة ٣٢.

(٣) جامع الأصول رقم ٧٧٢٣.

(٤) المصدر نفسه ٧٧١٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أخرى عن عبد الله بن عمرو «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» ولقد ذكرنا أن القتل جريمة كبرى وكبيرة عظمى من الكبائر تجعل مرتكبها على شفير جهنم، فإن تاب وندم يرجى له المغفرة، فعند البخاري عن سعيد بن العاص عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حراماً» وقال ابن عمر: «إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»(١) وهذا يعني بوضوح ارتكابه جريمة لا فكاك من إثمها وعذابها لأنه أراق دمًا لا يستطيع جبره أو إعادته، فآكل المال إن تاب جَبر ما اقترف برده، وأنى للقاتل أن يرد الروح؟ لكن حديث قاتل المائة الذي تاب يعطي أملاً في التوبة، وفي رحمة الله الواسعة حين يعطي المقتول جنة عرضها السموات والأرض ليصفح عن القاتل التائب توبة نصوحاً، فما ورد من أحاديث غير هذا فيها تشديد وتكير على القاتل وتخويف لكي لا يقدم على هذا العمل، فعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يقتل المؤمن متعمداً أو الرجل يموت كافراً»(٢) رواه النسائي وهو حسن، أما القصاص من القاتل فعسى أن يكون كفارة له كما ورد في الحديث عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال تبايعوني على ألا تشركوا بالله ولا تسرقوا ولا تزنوا، قرأ عليهم الآية، فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب عليه فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئًا فستر الله عليه فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

قال الشافعي: لم أسمع في هذا الباب أن الحد يكون كفارة لأهله شيئًا أحسن من هذا الحديث.

---

(١) جامع الأصول ٧٧١٦.

(٢) جامع الأصول ٧٧١٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد أمر الله المسلمين بالمحبة والوداد وحرم بينهم سفك الدماء وأكل الأموال بالباطل، ومما ورد في خطبة الوداع: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما الآخر فالقاتل والمقتول في النار» قالوا يا رسول الله ﷺ هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: «لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه»(٢)

وكما منع الإسلام المسلم من قتل المسلم منع المسلم من قتل نفسه وجعل له عقوبة مماثلة لقاتله فيما لو قتله، فكما توعد القاتل بالنار توعد أيضًا قاتل نفسه بالنار ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ومن تحسى سمًا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالد مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً(٣)» وعند البخاري عن أبي هريرة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار والذي يطعن نفسه يطعنها في النار» وعند البخاري ومسلم عن الحسن البصري قال: حدثنا جندب بن عبد الله قال: «كان برجل جراح فقتل نفسه فقال: بَدَرَني نفسه فحرمت عليه الجنة»، أي استعجل موته.

الإسلام ينهى عن ترويع المسلم:

وكما نهى الإسلام نهيًا قاطعًا عن قتل المسلم نهى أيضًا عن ترويعه بسلاح أو غيره، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «من أشار على أخيه بحديدة لعنته

---

(١) رواه الترمذي ص ٣١٣ ج ٣ وهو حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) جامع الأصول ٧٧٣٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الملائكة»[1] وفي رواية زاد فيه «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» وعن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يُتعاطى السيف مسلولاً» وهو حسن، وعند الطبراني عن النعمان بن بشير قال: قال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً».

فتن أزهقت الأرواح:

ورغم ما أوردنا من حرمة دم المسلم والتشديد بالنكير على القاتل وأن نار جهنم تنتظره ليكون خالداً في نار جهنم، رغم هذا كله فقد حصلت حوادث مؤسفة في ديار المسلمين وظهرت فتن عمياء أريقت فيها دماء كثيرة، فكان قتل عثمان بن عفان رغم تخويفه للقتلة من عذاب جهنم وكانت معركة الجمل التي قتل فيها خلق كثير وكان ما بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان من حروب أشهرها معركة صفين، ثم الفتنة والحروب بين الأمويين والحسين بن علي ومقتل الأخير وصفوة من أقربائه وأتباعه في كربلاء ثم الفتنة والحروب بين الأمويين وعبد الله بن الزبير ثم بين الأمويين والعباسيين... إلخ ولعل هذا قدر كتب على الأمة، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي يقول: صلى النبي ﷺ، صلاة فأطالها فقالوا: يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها، قال: أجل إنها صلاة رغبة ورهبة إني سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها، وسألته ألا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها، وسألته ألا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»[2] وهو حديث حسن صحيح.

ولقد حذر رسول الله ﷺ المسلمين من الوقوع في الفتن ومن سفك دماء بعضهم بعضاً، ولكن الشقي من يسقط في الامتحان وينسى تحذير النبي، والسعيد من يتذكر هذا ويبتعد عن الفتن وتبقى يده نظيفة من سفك الدم الحرام، فعند البخاري

---

(١) رواه الترمذي وهو حسن صحيح ج ٣ ص ٣١٤.

(٢) رواه الترمذي ص ٣١٩ ج ٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عن نافع مولى ابن عمر أن ابن عمر «أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم علي دم أخي المسلم قالا: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله»[1] وقد عنى ابن عمر بالقتال يوم كانت الغزوات مع النبي ﷺ وكان القتال لنشر الإسلام وإزاحة الكفر، وفي صحيح مسلم عن عامر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبله، فجاء ابنه عمر فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فجاء فنزل فقال له: أنَزلتَ في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضربه سعد في صدره وقال: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[2] وعمر بن سعد هذا كان من جملة جيش ابن زياد الذي قتل الحسين، ثم قُتل في فتنة المختار الثقفي، أي إن كلامه وتحريضه لوالده أن يكون له باع في هذه الفتنة ليصل إلى الملك، وهذا يدل على نفسية عمر بن سعد، أي إنه طالب ظهور وملك فلما يئس من والده الذي عرف نفسيته ذهب وانضم إلى الأمويين فكان مصيره القتل الشنيع في هذه الفتن.

ولقد التزم سعد بن أبي وقاص باجتناب الفتنة وعمل بوصية النبي ﷺ فعند أبي داود عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد بن أبي وقاص يقول عن النبي ﷺ: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني قال: كن كابني آدم»[3] أي مثل ابني آدم المظلوم الذي قال لأخيه الظالم: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ

---

(١) جامع الأصول ٧٥٦٣ ج ١٠.

(٢) المصدر نفسه ٧٤٦٥.

(٣) المصدر نفسه ٧٤٦٤ وهو صحيح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وعن حذيفة بن اليمان قال: «ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تضرك الفتنة»(١).

فالنبي عليه الصلاة والسلام أمر المسلمين في زمن حدوث الفتنة بالاعتزال أو باتخاذ غنم في الجبال فعند البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».

وعند أبي داود ومسلم من حديث أبي بكرة قال: «إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس والجالس خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً من الساعي قالوا: يا رسول الله ما تأمرنا؟ قال: من كانت له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه قال: فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: يعمد إلى سيفه، فيضرب بحده على حَرّة ثم لينج ما استطاع النجاء»(٢)

أي يضرب حده على حجر صلد ليفله حتى لا يقاتل فيه.

كما أمر النبي ﷺ في الفتنة أن يُتخذ سيف من خشب ليمسك المسلم عن القتال فلا يقاتل. فعند الترمذي عن عُديسة بنت أهبان قالت: جاء علي إلى أبي فدعاه إلى الخروج معه، فقال له: إن خليلي وابن عمك عهد إلي إذا اختلف الناس أن أتخذ سيفاً من خشب فقد اتخذته فإن شئت خرجت به معك، فتركه)

وكذلك أمر النبي ﷺ في الفتن أن تكسر القسي وتقطع أوتارها وأن يلتزم أجواف البيوت وأن يكون المسلم حلساً من أحلاس بيته، أي كالمتاع أو الكساء على ظهر البعير لا يحرك ساكناً.

---

(١) رواه أبو داود وهو صحيح.

(٢) جامع الأصول رقم ٧٤٥٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وحذر من الذين يبثون الفتن بين المسلمين ويهيجون بعضهم على بعض فعند مسلم عن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هنَات وهنَات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان» ويا ليت هذا طبق على ابن سبأ لما كانت هناك فتنة.

وقد حذر النبي ﷺ من حمل السلاح على المسلمين فعند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا» وعن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهر سيفه ثم وضعه فدمه هدر»(١) لأنه تجرأ وشهر السلاح فأصبح دمه هدراً فلو قتل في أثناء إشهاره للسلاح لما عوقب قاتله في الدنيا ولما عذب عن ذلك في الآخرة، وعند البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»(٢).

فعلى المسلم ألا يلجأ إلى السلاح مهما حصل بينه وبين غيره من المسلمين من نزاع وخلاف، وأن يضع سلاحه دائمًا في مكان يصعب الوصول إليه بسرعة لكي يفكر وهو يريده كثيراً ويرجع إلى رشده، فكم أورث إشهار السلاح العداوة والبغضاء وسفك الدماء.

ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٣) رواه البخاري ومسلم فهل بعد هذه الزواجر من سبيل إلى البعد عن سفك الدم الحرام؟

---

(١) رواه النسائي وهو صحيح.

(٢) جامع الأصول ٧٥٣٣.

(٣) المصدر نفسه ٧٥٣٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الحجاج بن يوسف وسعيد بن جبير:

الحجاج أمير على العراق من قبل عبد الملك بن مروان، كان شديداً على الناس يقتل على الشبهة وينتصر للأمويين وينصب العداء لعلي وآله، قال أهل التاريخ اختبأ سعيد بن جبير من الحجاج مدة بمكة، فأرسله والي مكة خالد بن عبد الله القسري مكبلاً إلى الحجاج في الكوفة، ولما قدم على الحجاج قال له: ما اسمك؟ قال: سعيد، قال ابن من؟ قال: ابن جبير، قال الحجاج: بل أنت شقي بن كسير، قال سعيد: أمي أعلم باسمي واسم أبي، قال الحجاج: شقيت وشقيت أمك، قال سعيد الغيب يعلمه غيرك، قال الحجاج: لأوردنك حياض الموت قال سعيد: أصابت إذن أمي اسمي، قال الحجاج: لأُبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال سعيد: لو أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً، قال الحجاج: فما قولك في محمد؟ قال سعيد نبي الرحمة وإمام الهدى، قال الحجاج فما قولك في الخلفاء؟ قال سعيد: لست عليهم بوكيل، كل امرئ بما كسب رهين، قال الحجاج: أشتمهم أم أمدحهم؟ قال سعيد: لا أقول ما لا أعلم، قال الحجاج: أيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي، قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. قال الحجاج: صف لي قولهم في علي، أفي الجنة هو أم في النار؟ قال سعيد: لو دخلت الجنة فرأيت أهلها علمت، ولو رأيت من في النار علمت، فما سؤالك عن غيب قد حفظ بالحجاب؟!

قال الحجاج: فأي رجل أنا يوم القيامة؟ قال سعيد: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب، قال الحجاج: أبيت أن تصدقني، قال سعيد: بل لم أرد أن أكذبك، قال الحجاج: دع عنك هذا كله وأخبرني، مالك لم تضحك قط؟ قال: لم أر شيئًا يضحكني، وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار، ومنقلبه إلى الجزاء؟! قال الحجاج: فأنا أضحك، قال سعيد: كذلك خلقنا الله أطواراً قال الحجاج: هل رأيت شيئًا من اللهو؟ قال: لا أعلم، فدعا الحجاج بالعود والناي فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد، قال الحجاج: ما يبكيك؟ قال: هو الحزن، ذكرتني

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أمراً عظيماً، أما هذه النفخة فذكرتني يوم النفخ في الصور وأما العود فشجرة قطعت في غير حق وأما الأوتار فمن الشاء تبعث معها يوم القيامة فقال الحجاج: أنا أحب إلى الله منك، أنا مع إمام الجماعة، وأنت مع إمام الفرقة قال سعيد: ما أنا بخارج على الجماعة ولا أنا براض عن الفتنة، ولكن قضاء الرب نافذ لا مرد له، قال الحجاج: كيف ترى ما نجمع لأمير المؤمنين؟ قال سعيد: لم أره، فدعا الحجاج بالذهب والفضة والكسوة والجوهر، فوضع بين يديه، قال سعيد: هذا حسن إن قمت بشرطه، قال الحجاج وما شرطه؟ قال: أن تشتري له بما تجمع الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة، قال الحجاج: أتحب أن تنال منه شيئًا؟ قال: لا أحب ما لا يحب الله. قال الحجاج: ويلك! قال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة فأدخل النار، قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما أدبر ضحك، قال: ما يضحكك يا سعيد؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك، قال الحجاج: اضربوا عنقه، قال سعيد: دعني أصلي ركعتين، فاستقبل القبلة وهو يقول: إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة، قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم قال الحجاج: لم نوكل بالسرائر وإنما وكلنا بالظواهر، قال سعيد: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي، ثم ضربت عنقه.

ويروى أن دمه فار حتى ملأ الغرفة وامتد إلى ما تحت كرسي الحجاج، فخاف الحجاج وبدأ يهذي فقال: القيد، القيود، فظن الحراس أنه يريد القيد الذي في أرجل سعيد فقطعوا ساقيه بالسيوف واستخرجوا القيود، وحم الحجاج بعدها ولم يعش أكثر من أربعين يومًا، وكان قبل موته يقول: ما لي ولابن جبير متندمًا على ما فعل.

الله نصير المظلومين:

كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، يكنى أبا معلق، وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقيه لص مقنع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالسلاح، فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك، قال: شأنك بالمال، قال: لست أريد إلا دمك، أما المال فإنه لي، قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات، قال: صل ما بدالك، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: «يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما تريد، أسالك بعزك الذي لا يرام وبملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك: أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني ثلاث مرات، فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه - إلى أبي معلق - فقال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت بدعائك فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب فسألت الله أن يوليني قتله، قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب»[1].

نصيحة عمر بن عبد العزيز للوليد بن عبد الملك:

قال عمر بن عبد العزيز للوليد بن عبد الملك: إن عنده نصيحة فإذا خلالك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها.. فمكث أياماً ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقال له: ناس فيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم وأن عمالك يقتلون ويكتبون: إن ذنب المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به فاكتب إليهم: ألا يقتلَ أحد منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه، ثم يُشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك، قال: بارك الله فيك يا أبا حفص فكتب إلى الأمصار فلم يضق من ذلك إلا الحجاج فإنه أمضه وشق عليه وأقلقه وظن أنه لم يكتب به إلى أحد غيره

---

(١) ابن قيم الجوزية في الجواب الكافي ص ١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يبحث عن ذلك فقال: من أين دهينا؟ ومن أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال: هيهات! إن كان عمر فلا نقض لأمره.

القرامطة يقتلون الحجاج في مكة ويأخذون الحجر الأسود:

قال صاحب كتاب البداية والنهاية: «القرامطة شر من اليهود والنصارى والمجوس بل ومن عبدة الأصنام وأنهم فعلوا بمكة ما لم يفعله أحد، وكل مؤمن يعلم أن هؤلاء قد ألحدوا في الحرم إلحاداً بالغًا عظيمًا وأنهم من أعظم الملحدين الكافرين» ففي حج سنة ثلاثمائة وسبع عشرة، وفي يوم التروية[1] ظهر القرمطي أبو طاهر بجيشه في مكة؛ فاستباح الأنفس ونهب الأموال، فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقًا كثيراً، وجلس أميرهم على باب الكعبة والناس تقتل حوله في المسجد الحرام وهو يقول: أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا» يقول هذا بكل وقاحة وتكبر، وكان الناس يفرون من أتباعه ويتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئًا بل يقتلون وهم كذلك فقتل الآلاف ثم رمى القتلى في بئر زمزم وترك الباقي كالتلال في الحرم ثم هدم قبة زمزم وقلع باب الكعبة ووأخذ الحجر الأسود ومزق كسوة الكعبة وهو يقول لأصحابه: «أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟» وخرجوا بعد هذه الجريمة الكبرى ومعهم الحجر الأسود الذي مكث في حوزتهم ثنتين وعشرين سنة.

وقد حاول أمير مكة ومن معه من جنده وأهله أن يستردوا الحجر الأسود فلم يفلحوا وبذلوا المال فلم يعده لهم، بل قاتلهم حتى قتلوا جميعاً، وكان تفوق هذا القرمطي الملحد بسبب ضعف المسلمين وحكامهم وابتعادهم عن التمسك الصحيح بشريعة الله، حيث الخلافة في بغداد ضعيفة يتحكم في أمور الدولة الخصيان والعبيد والوزراء المفتونون بالمال والمتاع، فكل همهم أن يحوزوا من الدنيا شهواتها من مال

---

(١) يوم ٨ ذي الحجة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحوار وضياع وخدم ... فلم يلتفتوا إلى حراسة الدين فكان أن طغى هذا القرمطي، ولقد عاقب الله خليفة المسلمين الذي حصلت هذه الجريمة في عهده دون أن يردعها وهو مقيم ببغداد، عاقبه بأن سلط وزراءه وقادته عليه فقتل شر قتلة ورمي به على مزبلة عارياً بعد أن نهب ما معه، حتى ستره فلاح كان ماراً بهذا المكان.

العفو عند المقدرة :

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، رأيته قاعداً بفناء داره، محتبيًا بحمائل سيفه يحدث قومه، حتى أُتي برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فو الله ما حل حبوته – بقي كما كان محتبيًا – ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا بن أخي أثمت بربك ورميت نفسك بسهمك وقتلت ابن عمك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك وحل كتاف ابن عمك وسق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة.

مآخذ على بعض الحكام:

ومما يعاب على بعض الحكام أنهم كانوا يسارعون إلى القتل عند ما يواجهون أية مشكلة مع شعوبهم، وهذا العمل القبيح ناتج عن الخوف من زوال سلطانهم وبعضهم يفعل ذلك لزرع المهابة والخوف في النفوس – كالحجاج مثلاً – لكيلا يجرؤ أحد على قول إلا ما يريده الحاكم، فهم يتوجسون خيفة من كل داعية إلى الخير ومن كل ناصح أو ناقد سواء أحسن التصرف في نصحه أو أساء، فلا يحبون أن يسمعوا إلا ما يحلوا لعقولهم، ولا يقبلون إلا المديح والثناء والإطراء، فتغيب عنهم الحقائق وحاجات الناس، وقد قال عمر بن الخطاب: رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي، فهو يريد النصح والنقد ولا يريد المديح والإطراء، وذلك لكي يصحح الخطأ ولا يتمادى فيه، لأنه

---

(١) رواه الترمذي ٤٣٨ ج ٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يخاف الله ويخشاه.

ومن الحكام من يتمادى في الغواية أكثر فيقبل الوشاية ويقتل على الشبهة صوناً لكرسي الحكم من خطر متوهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»(١) إذ كيف يحيي مقتولاً إن ثبتت براءته؟ لكن يمكن أن يمسك بمن عفا عنه إن ثبتت تهمته، وكثيراً ما يزين خواص الحاكم للحاكم أموراً متوهمة ويحرضونه على العقاب، ليتقربوا منه أولاً ولكي يعيش في خطر متوهم ثانيًا، فيبقى اعتماده عليهم، وبهذا يحافظون على مناصبهم، لذلك يُدعى دائمًا للإمام من أهل الخير بأن يُرزق بالبطانة الصالحة، ويحكى عن أبي جعفر المنصور، أنه كان يطوف ليلاً حول الكعبة فسمع قائلاً يقول: «اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور وجلس ناحية المسجد وأرسل للرجل يدعوه، فأقبل وسلم عليه بالخلافة فقال المنصور: ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض؟ وما يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فو الله لقد حشوتَ مسامعي ما أرمضني - أوجعني - قال: يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها... فقال: أنت آمن على نفسك فقل! فقال: إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنت! قال: ويحك! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع المال وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح، ثم سجنت نفسك فيها عنهم وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح وأمرت بألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم

---

(١) رواه الترمذي ٤٣٨ ج ٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق.

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت ألا يُحجبوا عنك، لما رآك هؤلاء تجبي الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا: هذا قد خان الله، فما بالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه! فائتمروا بالا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا عابوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك. ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيًا وفسادًا، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك، فإن المتظلم منه له به حرمة فأجابهم خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل به فإذا أجهد وأحرج وظَهَرْتَ، صرخ بين يديك، فَضُرب ضرباً مبرحًا ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فلا تنكر، فما بقاء الإسلام بعد هذا؟!

ثم بكى المنصور بعد هذه الموعظة البليغة وقال: يا ليتني لم أخلق! ويحك فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بهم فاجعلهم بطانتك يرشدونك وشاورهم في أمرك يسددونك، قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، فقال: خافوا أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأمة». وهنا نرى أن المنصور قد تلقى هذه النصيحة بالقبول وشكر للناصح نصحه ولم ينقلب عليه أو يفتك به.

وجاء رجل إلى الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها قال: كلا، إن الله أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني قال لنبيه موسى إذ أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(١) وهنا أراد الرشيد أن يعلمه أدب الواعظ فليس كل حاكم يحتمل شدة الوعظ، وقد أثر عن الرشيد أنه احتمل الوعظ وكافأ عليه رغم شدته، لأنه يعرف للعلماء الواعظين حقهم.

ووجه الأوزاعي رحمه الله موعظة للحكام فقال: «ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة، وحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا، وبالحق فيهم قائمًا، فلا يتخوف محسنهم رهقًا، ولا مسيئُهم عدواناً فقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة(٢) يستاك بها ويردع عنه المشركين بها فأتاه جبريل فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي معك!! اتركها لا تملأ قلوبهم رعباً، فما ظنك بمن سفك دماءهم، وقطع أستارهم ونهب أموالهم؟! يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر – يعني النبي ﷺ – دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده، فقال جبريل: يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك واعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها، ولو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة علق بين السماء والأرض لأهلك الناس رائحته، فكيف بمن يتقمصه؟ ولو أن ذَنوباً – دلواً – من صديد أهل النار صب على ماء الدنيا لأحمّه – سخنه – فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته فكيف بمن يسلك فيها – يدخل فيها – ويرد

---

(١) طه ٤٤.

(٢) عود من النخيل كان يستاك به.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فضلها على عاتقه؟».

وقد كان بعض الوعاظ يشدد بالوعظ على من جار في حكمه ليخيفه ويردعه ليكف عن الجور والعدوان، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»(١)

(١) رواه الترمذي وهو حسن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الوصية السادسة:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال في تفسير فتح القدير: «أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أحسن من غيرها وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله، وقيل المراد «بالتي هي أحسن» التجارة، و«حتى يبلغ أشده» أي إلى غاية هي أن يبلغ اليتيم أشده، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ واختلف في سن الرشد أو في بلوغ الأشد، فالذي عليه أكثر أهل العلم أنه سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بما له سالكاً مسلك العقلاء؛ لا مسلك أهل السفه والتبذير» اهـ.

فمن هو اليتيم الذي أوصانا الله به؟

اليتيم في بني آدم من فقد أباه، فإن فقد أمه أيضًا كان يتيم الأبوين كالنبي ﷺ، وأصل اليُتْم: الانفراد، يقال: صبي يتيم: أي منفرد من أبيه. وفقد الأب على الأولاد شديد لأنه عائلهم والسبب في تحصيل رزقهم وإطعامهم وكسوتهم وفي تحمل أعباء تربيتهم، يحمل عنهم كل مسؤولية، ففي الحديث الشريف: «والأب راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته» ففقده يسبب خللاً في البيت لا يجبر، ولكن التخفيف عن اليتيم يكون بوجود كافل أو وصي يقوم مقام الأب في رعاية هذا اليتيم والحفاظ على ماله حتى يبلغ أشده، وله في ذلك ثواب كبير ففي الحديث الشريف: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»(١) هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار بالسبابة والوسطى ومعنى: «له أو لغيره» أي قريبه أو الأجنبي منه.

---

(١) رواه البخاري وأحمد عن سهل بن سعد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولما نزلت الآية: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ والآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾(١)

قال: انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يَفْضل الشي أو يزيد عن حاجة اليتيم فَيُحبس له حتى يأكله فكان يفسد، فاشتد ذلك على الصحابة فذكروا ما حصل للنبي عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. رواه ابن كثير في تفسيره.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم اليتيم في آيات متعددة كلها توصي به أوتبين رحمة الله به لتعويضه عن اليتم قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾(٢) فجعلهم الله تعالى بالوصية مع الإحسان للوالدين ولذوي الأرحام والمساكين دون النظر إلى حالة اليتامى من حيث الفقر أو الغنى وإن كان يغلب عليهم الفقر بسبب فقد الأب، وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(٣)

فرغب أهل الغنى واليسار بالانفاق عليه كما ينفق على الوالدين والأقربين والمساكين وأبناء السبيل، ولقد خصص الله تعالى صدراً من سورة النساء في الأيتام وحالهم والطريقة الحسنة في معاملتهم وسنفرد لها بحثًا مستقلاً، وجعل الله تعالى لليتامى نصيبًا من الغنائم فقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(٤) وقال أيضًا: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ

---

(١) النساء آية ١٠.

(٢) البقرة: ٨٢.

(٣) نفسه: ٢١٥.

(٤) الأنفال: ٤١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(١) ولقد جعل الله تعالى من صفات المؤمنين أنهم كانوا يحبون اليتيم ويطعمونه قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾(٢) وفي الوقت نفسه عاب على أهل الجاهلية عدم إكرامهم لليتيم فقال: ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾(٣) وهددهم بيوم القيامة وعقباته إن أساؤوا إليه، فقال تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾(٤) فلا فكاك من العقبة إلا بالإحسان إلى اليتيم أو المسكين. ولقد ذكر الله تعالى لطفه باليتيم ورعايته له خصوصاً إذا كان والده صالحاً فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾(٥) فحفظ الله لهما مال أبيهما من الضياع أو عبث العابثين فيما لو سقط الجدار وظهر الكنز وهما دون الرشد، فأرسل الله لهما الخضر مع موسى لإقامة الجدار فحفظ الكنز بذلك عن الأعين وطمع الطامعين بمال اليتيم.

ولقد أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ عن يتمه وأنه رعاه في يتمه حيث انتقل في كفالة الأمناء والمحبين له، من جده إلى عمه إلى أن بلغ أشده فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾(٦) ثم أوصاه باليتيم ومحبته ورعايته بعد أن ذكره بحالته ورعاية

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) الإنسان ٨.

(٣) الفجر: ١٧.

(٤) البلد: ١١ – ١٦.

(٥) الكهف: ٨٢.

(٦) الضحى: ٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الله له فقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[1]، وقد أحب النبي ﷺ الأيتام عموماً وذوي قرباه خصوصاً، فأوصى بهم، فعن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين» رواه أحمد، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وأخرج البزار عن بشير بن عقربة الجهني قال: لقيت رسول الله ﷺ يوم أحد فقلت: ما فعل أبي؟ قال: استشهد رحمة الله عليه، فبكيت فأخذني فمسح رأسي وحملني معه وقال: «أما ترضى أن أكون أنا أبوك وتكون عائشة أمك؟»[2] وعندما بلغ النبي ﷺ عن طريق الوحي خبر استشهاد قادة معركة مؤتة؛ زيد بن حارثه وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، انطلق عليه الصلاة والسلام إلى بيت جعفر بن أبي طالب، قالت أسماء بنت عميس زوجة جعفر: دخل علي رسول الله وقد دبغت أربعين منيئة[3] وعجنت عجيني وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم قالت: فقال رسول الله ﷺ: «ائتني ببني جعفر» قالت فأتيته بهم، فتشممهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك، أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «أصيبوا هذا اليوم» قال: فقمت أصيح واجتمع إلي النساء وخرج رسول الله إلي فقال: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم».

مما تقدم يتبين لنا حب رسول الله ﷺ للأيتام والتوجيه إلى حبهم.

---

(١) الضحى ٩.

(٢) حياة الصحابة ص ٤٩٠ ج ٢.

(٣) المنيئة: الجلد ما دام في الدباغ.

www.alukah.net

سورة النساء والاهتمام بالأيتام:

قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(١)

سورة النساء مدنية وقد نزلت لتبين أحكام النساء ومن على شاكلتهم من الضعفاء وهم الأيتام والصغار ومن لا يستطيعون التصرف ممن يحتاجون إلى وصي، وقد بدأها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

ففيها خطاب للمؤمنين بأحب الأسماء إليهم وفيها الأمر بتقوى الله، وتقوى الله تنجي من المهالك، وفيها التذكير بأن الناس كلهم من أصل واحد ومن نفس واحدة لا فرق بينهم من حيث الأصل والنشأة، «كلكم لآدم وآدم من تراب» وذلك لكي لايتعالى الإنسان على أخيه الإنسان، ثم إن تكرار تقوى الله من أجل تعميق الإيمان والتواضع، ثم تأتي الوصية بالأرحام حيث عطفها على لفظ الجلالة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

---

(١) النساء من ٢ – ٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تساءلون به ﴾ واتقوا (الأرحام) وكل هذا مقدمة لما سيكلف به الإنسان من الأمانة الكبيرة والمسؤولية العظيمة في الضعيفين (المرأة واليتيم)[1] وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ إلخ الآية حيث أمر الله الوصي أو الولي بإعطاء المال لليتيم الذي كان تحت رعايته متى بلغ رشده بعد البلوغ ونهاه عن تبديله وتغييره، وهذا ليس في المال النقدي، وإنما في الأنعام وما يمكن تبديله، كأن يكون عنده مثلاً عشرون من الغنم سماناً فيعطيه عشرين هزالاً، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي لا تضموها إلى أموالكم وتخلطوها مع أموالكم لتأكلوها وقد سبق أن ذكرنا اهتمام الصحابة الذين يرعون أيتاماً لهذا النهي، فعملوا على فرز أموالهم عن أموال اليتيم وطعامهم عن طعامه ففسدت بعض أطعمة اليتيم فنزلت الآية الكريمة ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾[2] فسمح لهم بالمخالطة لهذه الضرورة وإنما كان المنع لدفع الطمع بالمخالطة، فإذا عُدم الطمع وكانت المخالطة بلا غبن لليتيم ولمصلحته فلا مانع منها.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ إلى آخر الآية الثالثة، فهذه الآية في اليتيمة التي يرعاها وصي من غير محارمها ويصح له أن يتزوج منها فعليه أن ينكحها بمهرها ولا يغمطها حقها، واليتيمة التي من هذا النوع هي التي تستأمر في زواجها، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تستأمر اليتيمة في نفسها فإن سكتت فهو إذنها وإن أبت فلا جواز عليها»[3]، لذلك فإن الله خير الولي على اليتيمة في الزواج من غيرها إن كان في نفسه منها شيء لفقر أو قلة جمال أو يريد أن

---

(١) الحديث: «اللهم إني أحرّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة» رواه النسائي بإسناد جيد عن عمرو الخزاعي.

(٢) البقرة ٢٢٠.

(٣) رواه أبو داود ص ٢٣١ ج ٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يبخسها حقها من المهر، خيره في تركها والزواج من غيرها، فعند مسلم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ قالت: يا بن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق)[1] وفي رواية ثانية عن عائشة قالت في قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ قالت: «أنزلت في الرجل تكون له اليتيمة وهو وليها ووارثها ولها مال وليس لها أحد يخاصم دونها فلا ينكحها لمالها فيضرّ بها ويسيء صحبتها» وفي رواية أخرى «ويكره أن ينكحها رجلاً فيشركه في ماله، فيعضلها» أي يمنعها من الزواج. وأما قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[2] قالت عائشة: أنزلت في اليتيمة تكون عند الرجل فتشركه في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها ويكره أن يزوجها غيره فيشركه في ماله فيعضلها فلا يتزوجها ولا يزوجها غيره»[3].

ثم قال الله تعالى في الآية السادسة بشأن اليتامى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ والابتلاء هنا يعني الامتحان، ومعناه أن يختبروهم في المحافظة على أموالهم على مرات عدة قبل بلوغهم فإذا بلغوا وأنسوا منهم رشداً فعليهم أن يدفعوا أموالهم إليهم، وقد ورد في الحديث الشريف عن علي قال: حفظت من رسول الله ﷺ «لا يُتم بعد احتلام» أي إذا كبر اليتيم وصار فتى بعد سن الخامسة عشرة فلا يسمى يتيماً، لأنه بلغ وصار في عداد الرجال فلا تبقى

---

(١) صحيح مسلم ص ١٥٤ ج ١٨.

(٢) النساء آية ١٢٧.

(٣) رواه مسلم ص ١٥٦ ج ١٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الصفة ملازمة له، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ أي لا تتعدوا في أكلها من غير حاجة وضرورة فتبادروا قبل بلوغهم إلى التعدي ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهنا ندب الله الأغنياء إلى عدم الأكل من مال اليتيم مهما كان المأكول قليلاً، بل الأفضل أن يزيد له في المال وينميه لأنه غني ولا حاجة له في مال اليتيم، أما الولي الفقير فيجوز له أن يأكل بالمعروف من غير إسراف وذلك لقاء رعايته لليتيم وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتيماً عنده مال وليس لي مال، آكل من ماله؟ قال: «كل بالمعروف غير مسرف ولا مبادر ولا متأثل»(١)

والمبادرة: أي قبل البلوغ وهنا تعني: المسارعة، والتأثل: أصل المال أي دون أن يؤثر على أصل المال، وفي هذا لما سأل رجل ابن عباس فقال: «إن لي يتيمًا وله إبل أفأشرب من لبن إبله؟ فقال له ابن عباس: إن كنت تبغي ضالة إبله، وتهنأ جرباها وتليط حوضها وتسقيها يوم وردها، فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك لحلب»(٢) ومعنى تبغي ضالتها: تنشدها وتبحث عنها، وتهنأ جرباها: أي تداويها وتدهنها بالقطران، وتليط حوضها: تطينه وتصلحه، ورغم هذه الشروط الواجب القيام بها تجاه إبل اليتيم إلا أنه لم يسمح له بأخذ شيء من أصل الإبل وإنما سمح له بالشرب من حليبها بالمعروف غير ناهك لحلب.

وعند البخاري في معنى (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) قالت عائشة: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف، وعنده أيضًا «أن عمر تصدق بمال على عهد رسول الله ﷺ وكان يقال له ثَمْغ وكان نخلاً فقال

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وهو حسن.

(٢) رواه مالك في الموطأ وهو صحيح الإسناد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عمر: يا رسول الله إني استفدت مالاً وهو عندي نفيس فأردت أن أتصدق به فقال النبي ﷺ: تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن ينفق ثمره، فتصدق به عمر فصدقته ذلك في سبيل الله وفي الرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل ولذي القربى ولا جناح على من وليه أن يأكل منه بالمعروف أو يوكل صديقه غير متمول به»(١) وهذا نموذج للاستفادة مما يدر المال لا من أصله ليبقى أصله ثابتاً دون نقصان، فعلى ولي اليتيم أن يلتزم بهذا بل عليه أكثر أن يعمل لتنمية مال اليتيم إن كان مالاً نقدياً وإلا فإن الزكاة تأكله إذا انتظر به حتى يكبر اليتيم ويبلغ الرشد، فعند الدارمي: «في مال اليتيم يعمل به الوصي، إذا أوصى إلى الرجل» وعند الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «ألا من ولي يتيماً له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة»(٢) وفي الموطأ عن مالك بن أنس بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «اتجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الصدقة» وبلغه: أن عائشة رضي الله عنها «كانت تعطي أموال اليتامى من يتجر فيها» وعن القاسم بن محمد قال: «كانت عائشة تليني أنا وأخاً لي يتيمين في حجرها فكانت تخرج من أموالنا الزكاة»(٣) ولهذا فإن ولي اليتيم مسؤول عن ذلك ويجب أن تتوفر فيه شروط مناسبة لهذا كالقوة والأمانة والتصرف الحسن لكي يسير بهذه الأمانة نحو شاطئ السلامة، فعن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي، فلا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»(٤) فالأمر هنا لأبي ذر خاصة ولمن كان ضعيفاً مثله عامة، فالولاية على اليتيم تحتاج إلى صبر ودقة في الحساب وحرص على ماله ليوصله إلى سن الرشد ليدفع له ماله

---

(١) البخاري ج ٣ ص ١٩٣.

(٢) جامع الأصول ٢٧١٥.

(٣) المصدر نفسه ٢٧١٤ وكذلك الذي قبله.

(٤) المصدر نفسه ٩٢٦٢.

www.alukah.net شبكة الألوكة

ناميا، فإن فعل ذلك فله ثواب كبير وإن قصر وضعف كان عليه وزر كبير، ولقد تهدد الله سبحانه وتعالى من يتلف مال اليتيم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ فعند البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا يا رسول الله: وما هن؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»(١) ولقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم بالآية التي تطلب الإصلاح لليتيم وتنشد الخير له. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢) ومعنى لأعنتكم: لأحرجكم وضيق عليكم، وعند البخاري عند نافع قال: «ما رد ابن عمر على أحد وصيته فكان يقبل بالولي مع تذكيره بالله وحق اليتيم عليه، وكان ابن سيرين يقول: أحب الأشياء إلي في مال اليتيم أن يجتمع إليه نصحاؤه وأولياؤه فينظروا الذي هو خير له، وكان طاووس إذا سئل عن شيء في أمر اليتيم من قبل الولي يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فالويل والثبور لمن ولي مال يتيم ثم ضيعه أو أكله، ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ وبعد تمام البلوغ والرشد لليتيم، على الولي أن يدفع إليه ماله لأنه صار أهلاً للتصرف به وذلك بعد الاختبار الناجح واجتياز مرحلة السفه وتضييع المال، فإذا تم له البلوغ مع الرشد وهو غالباً بعد سن الخامسة عشرة لحديث ابن عمر في الصحيحين أن النبي ﷺ رده في غزوة أحد وأجازه في الخندق لأنه بلغ الخامسة عشرة.

وبعد وصول اليتيم للأهلية يرد له ماله ويشهد عليه في ذلك، لكي تبرأ ذمة الولي فلا يطالبه اليتيم بعد ذلك، والأفضل أن يكون ذلك مكتوباً جامعاً للحساب من يوم

---

(١) البخاري ص ١٩٥ ج ٣.

(٢) البقرة: ٢٢٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولايته إلى يوم تسليمه المال الذي كان في عهدته، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي كفى بالله محاسبًا وشاهدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم الأموال لهم، هل هي كاملة موفورة أو منقوصة مبخوسة مدلس حسابها؟ الله عالم بذلك كله سيجازي كل على عمله إن أحسن فله الحسنى، وإن أساء فله الجزاء الأوفى حيث لا يضيع عند الله مثقال ذرة.

ففي الحديث: «من قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنبًا لا يغفر»(١) فخدمة اليتيم ورعايته فيها ثواب كبير وكذلك الحفاظ على ما له إن كان له مال، فما أحرى الولي أن يلتزم بقول الله تعالى: ﴿ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ وقد استثنيت الأم من هذا إن كانت هي التي تربي أبناءها، فعند أبي داود عن عمارة بن عمير عن عمته أنها سألت عائشة قالت: «في حجري يتيم - تعني ابنها - أفآكل من ماله؟ فقالت عائشة: قال رسول الله ﷺ «إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه»(٢).

الوصية السابعة:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وهذه وصية تكفل حسن التعامل بين الناس فالكيل والميزان والمساحة والأطوال أمور أساسية في التعامل اليومي بين الناس، بها تؤدى الحقوق فإذا اختلت ضاعت الحقوق وفشت السرقة بين الناس وعمت الفوضى، لذلك كان ضبط الكيل والميزان من الأمور المهمة التي حرص عليها الإسلام، وأكد ذلك في آيات كثيرة وبين حال المطففين وما لهم يوم

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس ص ٢١٤ ج ٣.

(١) وهو حديث صحيح.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القيامة وما ينتظرهم من عقاب، ولأهمية الميزان أخبر تعالى أنه أنزله من عنده وذلك للأخذ به والعمل بمقتضاه، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾(١)، قال في فتح القدير: «والمراد بالميزان: العدل، كذا قال أكثر المفسرين، قالوا: وسمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق، وقيل إنه الميزان نفسه، أنزله الله من السماء، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس، وكما ورد أيضاً في سورة الحديد، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾(٢).

ولقد وضعت المحاكم الميزان شعاراً لها دلالة على إقامة العدل بين الناس كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأن أعمالنا ستوزن يوم القيامة، وأن الله سبحانه جلت قدرته يضاعف الحسنات للمؤمنين لترجح كفتها على السيئات، قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾(٣) فعندما تنصب الموازين يعرف أهل الخير من أهل الشر، قال الله تعالى ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾(٤) وفي سورة القارعة أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾(٥) وميزان الله سبحانه وتعالى دقيق لا يضيع فيه مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا

---

(١) الشورى: ١٧.

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) الأنعام: ١٦٠.

(٤) الأعراف ٨ – ٩.

(٥) القارعة ٦ – ٩.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿ نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(١) ولدقة هذه الموازين التي تزن حبة الخردل فلا تضيع فيها فتحسب، فإن الله سبحانه وتعالى طلب منا دقة الوزن لكي لا تضيع الحقوق بين الناس في الدنيا أيضًا وحتى لا يكون بيننا خلاف، فالميزان هو الحكم الذي يرضي الطرفين قال الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾(٢) وبعد كل هذه التنبيهات في إقامة الميزان يلجأ قوم من ضعاف الإيمان إلى عدم إقامة الميزان، وإلى تطفيفه من أجل طمع دنيوي، فيحتالون على أموال الناس بأن ينقصوا الوزن أو الكيل إذا باعوا، ويزيدوا في الوزن أو الكيل إذا اشتروا فتوعدهم الله بالعذاب الأليم فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) والويل عندما يذكر في القرآن يكون للوعيد، وهو واد في جهنم مخيف. فحال هؤلاء الربح الظاهر في الدنيا عند ظنهم، لكنهم سيدفعون الثمن في الدنيا والآخرة، في الدنيا تمحق بركة رزقهم ويسلط عليهم البلاء، وفي الآخرة يدفعون ما سرقوه أضعافاً مضاعفة، ففي الحديث الذي رويناه من قبل عن ابن عمر حيث جاء فيه: «وما نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان» وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طفف قوم كيلاً ولا بخسوا ميزاناً إلا منعهم الله عز وجل القطر»(٤).

وعند أبي داود عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول

---

(١) الأنبياء ٤٧.

(٢) الرحمن ٧ – ٩.

(٣) المطففين ١ – ٦.

(٤) رواه الطبراني.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله ﷺ: «ما يبكيك»؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم»(١)

وعن ابن عباس قال: «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم بغير حق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو» أخرجه الموطأ.

قصة قوم شعيب عليه السلام:

قال الله تعالى يحكي عن قوم شعيب مثلاً في الشرك وإنقاص الكيل والميزان: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(٢) فهذه الآيات تحكي خبر شعيب عليه السلام مع قومه الذين سكنوا مدين في شمال جزيرة العرب، وشعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وهو منهم، فقد وجدهم أهل شرك وتطفيف للكيل والميزان، فأمرهم بالأهم أولاً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا الأصل كما رأينا حيث لا ينفع عمل دون إيمان بالله، فتصحيح العقيدة أولاً فإذا

---

(١) رواه أبو داود ص ٢٤٠ ج ٤.

(٢) هود ٨٤ – ٨٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صحت انبنى عليها كل خير، بل وتوجه صاحب الإيمان من تلقاء نفسه للخير، وذلك بإلهام من إيمانه الصافي القوي فلا يقبل قلبه إلا خيراً، ويضيق به إن همّ بالشر، فلو نجح شعيب في إدخال الإيمان بقلوب قومه لكان الأمر الثاني هيناً، لكنهم رفضوا الأمرين معاً بعناد وإصرار، وأراد في الأمر الثاني وهو نهيهم عن تطفيف الكيل والميزان وسرقة أموال الناس بغير حق أن يتدرج في النصيحة وأن تكون من واقعهم، حيث لم يكتف أن يقول هذا حرام لا يرضاه الله، بل قال لهم: ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي إن لكم أموالاً كثيرة، فهذا التطفيف لا يزيدها كما تتوقعون، فأنتم في خير ونعمة فلا تفعلوا هذا فتحل بكم النقمة من أجل هذا القليل لأنه أخذ بغير حق، ماذا ينقصكم؟ المال عندكم، والمنازل عندكم، فكفوا عن هذا العمل، وبعد أن برهن لهم بمثل من واقعهم ومن معايشتهم ذكر لهم أن هذا الأمر الذي أنتم عليه يغضب الله فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ فانتقل بهم من الإنكار الحسي الملموس المعاش إلى التخويف بأمر غيبي يأتيهم من الله خالقهم الذي لا يرضيه ما يفعلون، ثم بعد أن شنع عليهم فعلهم ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أعطاهم الحل ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ فالرضى والسعادة تكون بتوفية الميكال والميزان بالعدل لا بالبخس والتطفيف، لو فعلتم هذا عن إيمان لشعرتم بالحلاوة والسعادة، فافعلوا وجربوا وإياكم أن تكونوا مفسدين في الأرض، لأن الله تعالى لا يقر المفسد، فهي أرض إعمار وإصلاح قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

فالله سبحانه استخلف الإنسان للإعمار والإصلاح ولعبادته بالطبع ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾(٢) وإلا فلماذا أهلك الأمم المفسدة الضالة؟

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) الذاريات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم انتقل شعيب إلى المجادلة بالحق وإظهار إفلاسهم مهما كسبوا من هذا الفعل القبيح، وأنهم إن عادوا إلى الصواب وآمنوا واعتمدوا على الله الوهاب الذي بيده مقاليد كل شيء لربحوا وفازوا، قال الله تعالى: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فما يبقيه الله لكم في الحلال هو أكثر بركة وبقاء وخيراً مما تأخذونه بالغش والحرام فاسمعوا نصحي لكم، فأنا أخوكم أخاف عليكم وليس من سبيل إلا النصح والتذكير فإذا جاء العذاب والغضب فليس لي قدرة على تخليصكم منه، فأنا مرسل ناصح أبين لكم سبيل الرشاد، لذلك قال: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ فما كان منهم بعد هذا البيان الرائع والتذكير المؤثر إلا أن صدوا وأصروا على ما هم فيه، لأن قلوبهم أقسى من الحجارة لا يعمل فيها وعظ ولا تأثير، فقالوا له مستهزئين به مقللين من شأنه ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ وهنا أصروا على الكفر واتباع طريقة من سبقهم في الكفر ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(١) فأصروا على الكفر كما أصروا على التطفيف وعدوا نصحه في توفية الكيل والميزان حقهما تدخلاً في حرية تصرفهم، فهذه أموالهم يفعلون بها ما يشاؤون بزعمهم، فهم أحرار بها، ولم يعلموا أن الله استودعهم إياها لأخذها بحق، وصرفها بحق، قال الله تعالى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾(٢) وقال تعالى: على لسان موسى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾(٣) إذاً هو مال الله وديعة في أيدي الناس سيسأل الإنسان عنه من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ فلا يستطيع أن يفعل به ما يشاء كما هي طريقة قوم شعيب عليه السلام، ثم قالوا له: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

---

(١) الزخرف ٢٣.

(٢) النور: ٣٣.

(٣) يونس: ٨٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهذا نوع من التهكم والسخرية به، بمعنى أننا كلنا على الباطل وداخلون في الغواية وإنك أنت وحدك الحليم والرشيد فينا! ألا ترى أن انفرادك عنا بهذا الرأي يجعلك وحدك المخطيء المخالف لآراء الأغلبية، وقد سمع الأنبياء صلوات الله عليهم كثيراً من مثل هذه السخرية، وهذا الموقف من أقوامهم ضده يظهر لنا أن الأغلبية الجاهلية لا تكون على حق، وأن الرأي الواحد الراشد يكون على الحق وإن خالف الأغلبية، فكم أقرت في هذا العصر قوانين جائرة باسم الأغلبية؟! وكم اختير من رؤساء وهناك من هو خير منهم بكثير باسم الأغلبية؟! ثم إن شعيباً يأخذهم باللين والبرهان الساطع ليبين لهم أن الأغلبية ضالة لم تهتد بعد، وما تراه وهي في عمايتها لا يمثل الحقيقة، فقال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أعلمهم أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو يخبرهم ويبلغهم رسالة الله لذلك كان أرشدهم وكان الحليم فيهم، فما يقول إلا عن بينة من أمره، يقول لهم: هذا كله من رزق الله لي ورحمته بي، حيث خصني عنكم بالنبوة والحكمة والعلم، بهذا جعلني أميز وبهذا جعلني أنهاكم عما تعملون، ثم قال لهم: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ فهل تظنون أنني إنما أنهاكم عن التطفيف في المكيال والميزان لأبادر أنا بفعله دونكم؟ لا إن هذا ليس من سمات الأنبياء، هذا من صفات الدجالين الذين ينهون عن المنكر ثم يفعلونه هم، فعند البخاري عن أسامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»(١) والأقتاب: هي الأمعاء.

لذلك معاذ الله أن يأمر شعيب قومه بالكف عن التطفيف ثم يفعله، لكن ضيق

---

(١) جامع الأصول ٢٦٥٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفق قومه وما جبلوا عليه من الشر جعلهم يظنون أن شعيباً يأمرهم بالكف عن التطفيف ليخلو له السبيل وحده فيفعل ما نهاهم عنه، فبرهن لهم أنه إنما نهاهم عن ذلك لخوفه عليهم من عذاب الله فقال: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ثم صبر عليهم أكثر بعد الاستهزاء به والتهم الباطلة التي لصقوها به فخوفهم مما حصل للأقوام الذين سبقوهم في الضلال ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي لا يحملنكم ما حصل بيني وبينكم من خلاف ونزاع وعداوة أن ينسيكم هذا ما حصل للأقوام الضالة قبلكم، فاحذركم للمرة الأخيرة كي تعودوا لرشدكم وتفكروا في عقولكم لتتبينوا المصير الذي ينتظركم إن بقيتم على منكراتكم، لقد كذبتموني واجتمعتم على خلافي واتحدتم ضدي، فلا تظنوا أن باطلكم قد انتصر على حقي، ولا تفرحوا بهذا فيعميكم فرحكم عن النتيجة النهائية التي لم تأت بعد، اذكروا من كان قبلكم وكيف عاندوا أنبياءهم ثم اذكروا ماذا كانت النتيجة؟ فلولا حبي لكم وشفقتي عليكم لما أطلت نصحكم، إني أخشى عليكم من عذاب محيط، وقد أعذرت أمام الله أنني ما رأيت باباً للنصح إلا سلكته معكم، ولكن لم ترعووا فشأنكم وما أنتم عليه، فلقد سبقكم قوم نوح فأغرقهم الله، وقوم هود أخذتهم الريح، وقوم صالح أخذتهم الصيحة، وهؤلاء جيرانكم قوم لوط انظروا ما فعل الله بهم دمرهم وخسف بهم الأرض وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ألا وإن باب التوبة مفتوح ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ لكنهم عادو للاستهزاء والسخرية وتصنعوا قلة الفهم، وأنه يكلمهم بكلام لا يفقهونه فقالوا ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾(١)

وهكذا بعد أن أفلسوا من الجدال الفكري ولم يستطيعو مقارعة الحجة بالحجة

---

(١) هود ٩١.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لجؤوا إلى القوة والتهديد، وهو دأب كل مفلس فكرياً، فهددوه بالرجم، لكن رحمة الأنبياء التي فطروا عليها جعلت شعيباً لا يمل ولا ييأس من هدايتهم، فخاطبهم برقته المعهودة وأنهم مازالوا قومه فقال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أنتم، لم ترجموني مخافة عشيرتي وأقربائي، أو لأجلهم واحتراماً لهم لأنهم على دينكم، فجعلتم لهم هذه المكانة، فيا ليتكم فعلتم هذا من أجل الله الذي أرسلني إليكم، أرهطي هؤلاء أعز عندكم من الله؟ إذاً أنتم مازلتم تجهلون، تنظرون إلى القوة المادية التي أمامكم فتخافون منها وتحسبون لها حساباً ولا تحسبون حساباً، لقوة الله التي تدمركم كما دمرت من سبقكم من أمم الضلال، ولما أعذر في هدايتهم إلى الطريق المستقيم وسلك معهم كل السبل الداعية إلى الحق عند ذلك قال لهم بلغة التهديد والوعيد ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي إنكم مازلتم تصرون على الكفر والتطفيف فابقوا على ما أنتم عليه معاندين كما أني متمسك بما دعوتكم إليه وسأبقى على مبدئي أيضاً فلا تظنوا أنكم بإصراركم على موقفكم وعنادكم وكفركم أني سأتغير أو أغير موقفي ودعوتي من أجلكم، لا بل ابقوا أنتم على موقفكم الضال وسأبقى أنا على موقفي الداعي إلى الله وانتظروا وسأنتظر أنا أيضاً لنرى عاقبة هذا الأمر ولسوف ترون الحق من الباطل وترون عاقبة إصراركم على موقفكم المخزي، وما سيحل بكم من دمار، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[1] وهكذا كان تدميرهم بالصيحة وما أدراك ما مقدار هذه الصيحة؟ إنها شيء شديد الانفجار يدمر كل شيء ويحدث هزة وزلزلة عظيمة، فأصبحوا بعدها جاثمين ميتين وأصبحت مدين بعد هذا دار

(١) هود ٩٤ – ٩٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خراب، كأن لم يكن فيها أحد من قبل، عادت بلقعاً خرباً تسفيها الرمال وتصفر فيها الرياح، فلو نظر شخص إلى مكانها لقال: لم يكن ههنا حياة من قبل، ألا بعداً لها من بلدة مغضوبة استحقت عذاب الله كما أبعدت وطردت من قبلها ثمود فهما مكانا مقت وغضب ما يزال سارياً إلى يوم الدين، فعن ابن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك الحجر(١) عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا ونصبوا القدور باللحم فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال: «إني أخشى أن يصيبكم ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»(٢) وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» رواه البخاري وهذا يدل على نبذهم حتى قيام الساعة.

الإسلام يهتم بأمر الميزان والمكيال:

ذكرنا أن الميزان آلة التناصف وإحقاق الحق، ومنها يظهر العدل في القسمة كما تؤدى الحقوق المتفق عليها بين البائع والمشتري، كما أوردنا الآيات التي تدل على طلب الله سبحانه من عباده إقامة الوزن بالعدل: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ كما ذكرنا انتقام الله من قوم شعيب الذين اشتهروا بتطفيف الكيل والميزان، وهو أخذهم السلعة زائدة الوزن، وبيعهم إياها ناقصة الوزن، فكانوا يسرقون من البائع إذا باعهم ومن المشتري إذا باعوه، وهؤلاء بفعلهم هذا كانوا قدوة لمن بعدهم من المطففين المحتالين بالوزن والمكيال، ثم ظهر فيمن بعدهم حيل كثيرة في اللعب بالميزان

---

(١) الحجر: بلاد ثمود واسمها الآن مدائن صالح وكانت غزوة تبوك سنة ٩ هجرية.

(٢) رواه أحمد.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من حيث توازنه أو من حيث أوزانه وصنجاته، فكان لابد لهؤلاء من مراقب ورادع حتى تستقيم أمور الناس ويسير المجتمع الإسلامي دون منغصات، فكان عمل المحتسب[1] في الإسلام يشتمل على مراقبة الكيل والميزان، قال في الأحكام السلطانية: «ومما هو عمدة المنع من التطفيف والبخس في المكاييل والموازين والصنجات لوعيد الله تعالى عليه عند نهيه عنه، وليكن الأدب عليه أظهر والمعاقبة فيه أكثر، ويجوز له – أي للمحتسب – إذا استراب بموازين السوقة ومكاييلهم أن يختبرها ويعايرها» ويقول أيضًا: «وإذا اتسع البلد حتى احتاج أهله فيه إلى كيالين ووزانين ونقادين تخيرهم المحتسب ومنع أن ينتدب لذلك إلا من ارتضاه من الأمناء الثقات» ويقول أيضًا: «ومما ينكره المحتسب في العموم ولا ينكره في الخصوص والآحاد، التبايع بما لم يألفه أهل البلد من المكاييل والأوزان التي لا تعرف فيه إن كانت معروفة في غيره، فإن تراضى بها اثنان لم يعترض عليهما الإنكار والمنع»[2] وجاء في كتاب أصول الدعوة ما يشترط للمحتسب أن يكون عارفًا به قال: «كما صرح الفقهاء بضرورة معرفة المحتسب بالأوزان ونحوها فمن أقوالهم: «لما كانت هذه – أي القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم – أصول المعاملات وبها اعتبار المبيعات لزم المحتسب معرفتها وتحقيق كميتها لتقع المعاملة بها من غير غبن على الوجه الشرعي»[3] وقال أيضًا: «إذا كانت أدوات الحرفة مقاييس للوزن أو الكيل أو الذراع وجب التأكد من سلامة هذه المقاييس وصحتها»[4] فمن هذا نرى أن أمر الموازين والمكاييل والقياس مهمة جداً في الإسلام، وفي الإسلام عبادات مهمة تتوقف على دقة الوزن والمكيال كالزكاة مثلاً، فنصاب زكاة الذهب عشرون مثقالاً ونصاب زكاة الفضة

---

(١) هو من يعينه ولي الأمر من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابتغاء مرضاة الله.

(٢) الماوردي الأحكام السلطانية ص ٣١٦.

(٣) د. عبد الكريم زيدان أصول الدعوة ص ١٧٤.

(٤) السابق ص ١٨٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مائتا درهم وزكاة الفطر صاع من بر أو تمر ونصاب زكاة الحبوب خمسة أوسق وكل وسق ستون صاعاً... وهكذا فإن للأوزان والمكاييل أهمية كبيرة في الإسلام، لذلك حرص الإسلام على دقتها، كما عرف لكل قطر صاعه، فهناك صاع الحجاز وصاع العراق، وهو أكبر لأنه يساوي ثمانية أرطال وصاع الحجاز يساوي خمسة أرطال وثلث وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الوزن وزن أهل مكة والمكيال مكيال أهل المدينة»(١) وشرح الحديث أن هذا يتعلق في أنصبة الزكاة فما كان منها موزوناً كالذهب والفضة فيؤخذ به وزن أهل مكة، فكل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل ونصابها كما ذكرنا مائتا درهم، قال: وكان أهل المدينة يتعاملون بالدراهم عند مقدم رسول الله ﷺ بالعدد، فأرشدهم إلى وزن مكة، وأما الدنانير فكانت تحمل إلى العرب من الروم وكانت العرب تسميها الهرقلية، ثم ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير في زمانه وهو أول من ضربها في الإسلام، أما قوله: «المكيال مكيال أهل المدينة» فهو الصاع الذي يساوي أربعة أمداد وكل مد يساوي رطلاً وثلثًا بالعراقي فكان وزن صاع المدينة خمسة أرطال وثلث وبه أخذ الشافعي. وصاع العراق ثمانية أرطال وبه أخذ أبو حنيفة.

وقد أوصى النبي ﷺ المسلمين باستعمال الكيل والميزان وذلك لإقامة العدل وعدم الغبن فعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «كيلو طعامكم يبارك لكم فيه» وأوصى بذلك أيضاً عثمان بن عفان فعنه أن النبي ﷺ قال له: «إذا بعت فكل وإذا ابتعت فاكتل»(٢) رواه البخاري.

كما أوصى الوزانين والكيالين فقال لهم: «إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيهما الأمم السالفة قبلكم» رواه الترمذي عن ابن عباس بإسناد صحيح. ولا مانع أن يزن

---

(١) جامع الأصول ٢٥١ رواه أبو داود والنسائي وإسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه ٢٥٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البائع فيزيد وذلك مستحب إن طابت نفسه بذلك، فعن جابر بن عبد الله قال: بعت النبي ﷺ بعيراً في سفر، فلما أتينا المدينة قال: «ائت المسجد فصل ركعتين» قال: فوزن لي فأرجح» أخرجه البخاري ومسلم وفي رواية أخرى قال لبلال: أعطه أوقية من ذهب وزده، قال جابر: فأعطاني أوقية[1] من ذهب وزادني قيراطاً» ولا مانع من الاتفاق في عصر من العصور على أوزان معينة تصطلح عليها الأمة وتكون موحدة معروفة لكيلا يقع غبن في اختلاف الأوزان والمكاييل، كما يحصل في هذه الأيام في اتخاذ «الكيلو غرام» والليتر والمتر ثم تحول الأوزان القديمة والمكاييل إلى ما يساويها في المصطلحات الحديثة فيعرف نصاب الذهب الذي هو عشرون مثقالاً[2] بما يساويه من الغرام وكذلك نصاب الفضة والصاع بما يساويه من الوزن بالنسبة للقمح والشعير أو ما يساويه من الليتر وكذلك الذراع وما يساويه من المتر، فعند البخاري عن السائب بن يزيد قال: كان الصاع على عهد رسول الله ﷺ مداً وثلثاً بمدكم اليوم وقد زيد في زمن عمر بن عبد العزيز».

فأنت ترى أن عمر بن عبد العزيز قد أحدث صاعاً آخر اقتضته المصلحة العامة ومعرفة الوزن لها أهمية في الشريعة الإسلامية، وذلك للتعامل الحلال حتى لا يتسرب من خلال الجهل الربا إلى هذا التعامل، فعند مسلم: «أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب ولا الوَرِق بالوَرِق إلا وزناً بوزن مِثْلاً بمثل، سواء بسواء وفي رواية فمن زاد أو استزاد فقد أربى، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر فجاءهم بتمر جنيب – أي جيد – فقال: أكل تمر خيبر هكذا؟ قال: إنا لنأخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاث، قال: «لا تفعل: بع الجمع – أي التمر

---

(١) الأوقية تساوي: أربعين درهماً وزناً.

(٢) الدرهم = ٣ غرامات – المثقال = $\frac{٢٢}{٧}$ غ أي كل ١٠ دراهم = ٧ مثاقيل

الصاع = $\frac{٣}{٢}$ ليتر – الأوقية = ٤٠ درهماً = ١٢٠ غراماً.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الردئ - بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا» وعند أبي داود: أن النبي ﷺ قال: «الذهب بالذهب تبرها وعينها والفضة بالفضة تبرها وعينها والبر بالبر مدين بمدين والشعير بالشعير مدين بمدين والتمر بالتمر مدين بمدين والملح بالملح مدين بمدين فمن زاد أو ازداد فقد أربى».

ومعنى التبر: الذهب قبل أن يضرب نقوداً وكذلك بالنسبة للفضة.

ومعنى العين: الذهب مضروباً.

فلا ينبغي بيع الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل سواء أكان سبيكة أو مصاغاً وللتخلص من ذلك يباع الذهب التبر بمال نقدي كالريال مثلاً ثم يشتري بعد ذلك ذهبًا مصاغاً بالريال فلا يقع في هذه الطريقة ربا.

وكذلك إن خالط الذهب خرز أو أحجار فيجب أن يوزن كل نوع، فلا يصح في قلادة فيها خرز أو حجر كريم أن توزن به وتباع على أنها ذهب وإنما يجب أن يفصل كل نوع ويوزن ويحسب، ففي الحديث عند أبي داود قال: أُتي النبي ﷺ عام خيبر بقلادة فيها ذهب وخرز ابتاعها رجل بتسعة دنانير - أو بسبعة - فقال النبي ﷺ: «لا، حتى تميز بينه وبينه» فقال: إنما أردت الحجارة فقال النبي ﷺ: «لا، حتى تميز بينهما»(١) قال: فرده حتى ميز بينهما والحديث صحيح. وعن عطاء بن يسار قال: إن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية - إناء للشرب - من ذهب أو فضة بأكثر من وزنها فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا إلا مثلاً بمثل؛ فقال له معاوية: ما أرى بمثل هذا بأسًا فقال أبو الدرداء: من يعذرني من معاوية؟ أنا أخبره عن رسول الله ﷺ وهو يخبرني عن رأيه؟! لا أساكنك بأرض أنت فيها، ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب فذكر له ذلك، فكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أن لا تبع ذلك إلا مثلاً بمثل وزنًا بوزن» أخرجه الموطأ وإسناده صحيح.

---

(١) جامع الأصول ٣٨٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وحذر الإسلام من الانقاص من المساحة في الأرض:

فكما نهى عن التطفيف في الكيل والوزن فإنه نهى عن أخذ شبر من الأرض بغير حق، فعند قسمة الأرض أمر بالقسمة العدل، ففي البخاري ومسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «كان بيني وبين أناس خصومة في أرض، فدخلت على عائشة فذكرت ذلك لها فقالت: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين»(١) وهذا ينبغي أن لا يحتال أحد عند مسح الأرض لقسمتها، فينقص من المقياس ليعطي الأصغر وينال الأكبر، وعند البخاري عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حق خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»(٢) ومعنى طوّقه: يُجعل في عنقه مثل الطوق من هذه الأرض المغصوبة ليحمله يوم القيامة.

ولا يسعنا بعد أن قدمنا من بسط لموضوع إقامة الحق والعدل في الميزان إلا أن نردد قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ثم قال الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلا طاقتها في كل تكليف من التكاليف، ومنه إيفاء الكيل والميزان فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان، ويكون الوسع حسب الامكانات المتاحة ،فكلما تقدم العلم وتقدمت صناعة المكاييل والموازين كان الوسع أدق، وكذلك نوع الموزون يحدد الدقة، فالذهب وما شابهه يحتاج لبذل غاية الوسع في الوزن، كما ينبغي على الوزّان استعمال أحدث الموازين والمكاييل المتاحة.

---

(١) جامع الأصول ٦٢٠٨.

(٢) السابق ٦٢١٠.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تجار اليوم يحومون حول تطفيف الكيل والميزان:

لا أريد أن أتكلم عن موضوع التقليد للبضائع الجيدة أو انتحال أسماء مشابهة لها أو قريبة منها لتغرير المشتري، كما لا أريد أن أذكر أسماء بعض الدول التي تعيش على صناعة تقليد المنتجات الشهيرة الموثوقة، فتلبس الأمر على كثير من المشترين، وأذكر أنني كنت في بلدي عند أحد التجار فأتى مندوب من دولة تشتهر بضاعة السمن والزبد وقال للتاجر أعطني عينة من سمن بلادكم - وهو من أجود أنواع السمن البلدي - لأصنع لكم مثله لونًا ورائحة وطعمًا، فأعطاه عينة فكان ذلك، وتهافت الناس البسطاء على هذا السمن ليشتروه لرخصة بالنسبة للسمن البلدي ولطعمه الخادع، هذا ولا أريد أن أبحث به الآن لأنه يقع تحت باب الغش، وهو ليس موضوعنا، وقال عليه الصلاة والسلام: «من غشنا فليس منا» أما موضوعنا فهو حول الكيل والميزان، لقد قدمت إلى المملكة العربية السعودية منذ فترة طويلة - ١٣٩٥هـ - وفيها الكيل والميزان على أحسن ما يرام سماحة في الوزن لم أعهدها من قبل، وبركة في الموزون وهؤلاء الباعة الذين يزنون ترى فيهم السماحة والكرم لا يبالون مهما مال الميزان لصالح المشتري بل يفرحون ويسرون لهذا، حتى يجد المشتري في نفسه الغبطة والفرح بما نال، ولم أسمع من هؤلاء الباعة أن أحداً منهم قد شكى نقصًا لبضاعته بل كملتها البركة من الله تعالى، ولقد دخلت بعض الحيل في الميزان من شركات خارجية فعملت على محق هذه البركة بما احتالت في هذا الشأن وسأوضح ما حصل بالضبط:

مثال ١: صناديق البرتقال فقد كانت في بداية الأمر كبيرة لا يقل ما فيها من البرتقال عن اثني عشر كيلو، ثم صغر حجمها قليلاً بحيث لا تبدو للناظر أنها أصغر من سابقتها فنقص بالطبع ما فيها من برتقال، فعلي فرض أنه لو كانت أبعاد الصندوق في المرة الأولى ٣٠×٣٠×٣٠ سم لكانت سعته تساوي / ٢٧٠٠٠ سنتي متر مكعب، فلو أنقص من الأطوال سنتي مترين فقط لأصبح الحجم ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ = ٢١٩٥٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سنتي متر مكعب وكان الفارق بين سعة الصندوق الأول والثاني ٥٠٤٨ سنتي متر مكعب وإذا علمنا أن الليتر يساوي ١٠٠٠ سنتي متر مكعب لوجدنا أن الفارق ليزيد عن خمسة ليترات وهو فارق كبير بين الصندوقين رغم أن الأبعاد كانت متقاربة والفارق بينها سنتي متران فقط.

ثم استمر انقاص أبعاد الصندق حتى صغر وكل مدة تصنع صناديق أصغر من سابقتها حتى استقر الآن الوضع على صندق لا يحوي على أكثر من سبعة كيلو غرامات وقل مثل ذلك البطاطا التي لا يجاوز وزن صندوقها الآن الخمسة كيلو غرامات.

مثال ٢ : مساحيق المنظفات، بدأت بعلب كبيرة فيها خمسة كيلو غرامات ثم أبقي على حجم العلبة وأنقص الوزن إلى أربعة كيلو غرامات ونصف وبقي السعر أو زاد قليلاً وفي الحجم الصغير بدأ الوزن بـ أكثر من مائتي غرام ثم أصبح أقل من مائتي غرام مع الإبقاء على حجم العلبة.

مثال ٣ : في المعلبات وليكن مثالنا صلصة الطماطم بدأت العلب الصغير بـ مائة غرام ثم أصبحت خمسة وثمانين واستقرت الآن على سبعين. وكذلك بالنسبة للزيوت النباتية حيث بدأت العبوة بسعة «جالون» وهو أقل من أربعة ليترات ثم أصبحت ثلاثة ليترات ثم أصبحت ٢,٧ ليتر والحجم في الظاهر متقارب والسعر ارتفع عما كان.

لا أريد أن ضرب أمثلة أكثر فلعل من فعل هذا يبرر فعلته بأنه كان يكتب الوزن على العلبة، وفي مثال البرتقال كان يبقى على العدد نفسه.

أقول ربما بقي العدد نفسه ولكن صغر الحجم وقل الوزن وهنا يكمن الغرر والخداع وكذلك في الأوزان على العلب الصغيرة إنها كتبت ولكن بخط صغير جداً ونحن نعلم أن غالبية الناس في مجتمعنا لا يفكرون حتى في النظر إلى ما كتب على العلب ولا يدققون فيها، المهم عندهم وجود الصنف وتوفر حاجتهم، ولو سألت كثيراً

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

منهم، كم وزن علبة كذا من منظف كذا؟ لما عرف علماً بأنه يشتريه دوماً، فأمانة التاجر يجب أن تمنعه من استغلال هذا الوضع في مجتمعنا، فإذا بدأ بوزن معين ووثق الناس بهذا الصنف عليه أن يبقي على هذا الوزن وإن قل ربحه، فإذا حصلت زيادة كبيرة في الأسعار ولم يعد بإمكانه إلا إنقاص الوزن أو رفع السعر، فعليه أن ينبه إلى الوزن إن اختار إنقاصه إما بالإعلان وإما بكتابة ملاحظة بشكل ملفت على العلب بأن وزن محتويات العلبة أصبح كذا، فيمتنع الغرر في هذه الحالة، أما أن يتسابق التجار في تقديم عروض أقل على حساب المشتري وهو لا يدري ما حدث في وزن البضاعة فهذا يعد من باب تطفيف الكيل والميزان، علماً بأن البضائع رغم إنقاص وزنها زاد أيضًا سعرها، لقد احتال بنوا إسرائيل على صيد السمك في يوم السبت الذي منعوا من الصيد فيه، فحجزوا الأسماك في المياه بالشباك ثم استخرجوها في يوم الأحد فعاقبهم الله على هذا العمل، رغم أن ظاهره يوحي بأنهم صادوها في غير يوم السبت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(١)

فالتاجر الصدوق مع ربه ومع الناس له ثواب كبير من الله تعالى، فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء»(٢) قال الترمذي حديث حسن. وعن رفاعة بن رفاع قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون فقال: «يا معشر التجار» فاستجابوا ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «إن التجار ليبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق»(٣) قال الترمذي حسن صحيح. لذلك فعلى التاجر ألا يسلم تجارته والتصرف فيها إلى موظف تعلم الحيل التجارية، ولا يستمع له إن زين له شيئًا

(١) البقرة ٦٥.

(٢) جامع الأصول ٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه ٢٤٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من هذا بقصد زيادة الأرباح، وكان عمر يقول: «لا يبع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين»(١) حتى يخشى الله ويعرف ما يجوزو ما لا يجوز، وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ: «نهى عن بيع الغرر»(٢) رواه مسلم والغرر: ما يكون للشيء ظاهر جيد يغري المشتري ثم يكون له باطن مختلف لا يعجب. والمعنى ألا يكون في البيع شيء يخدع أو خداع في البيع وأساليبه، وألا يكون فيه كتمان عن شيء أو محاولة الكتمان، أو اتخاذ أساليب خادعة تضلل المشتري فلا ينتبه إلى التدقيق في سلامة السلعة أو التعرف على مواصفاتها.

وفي ختام هذا البحث على من أراد العمل بالتجارة أن يتصرف فيها عن علم ديني ومعرفة بأحكام الشريعة، وألا يكون قدوته في ذلك قوانين غير أهل الإسلام لأنهم ابتدعوا أموراً في التعامل والتجارة لا يقرها الإسلام، فما وافق أخذناه وما خالف صححناه.

الوصية الثامنة: ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وهذه الوصية مهمة جداً في إشاعة الحق والعدل والصدق في المجتمع المسلم لذلك فإن هذه الوصية تشتمل على فوائد عدة منها:

١- أهمية الكلمة بالنسبة لقائلها: قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٣) من هذه الآية نتبين أهمية الكلمة، لأن الكلمة متى خرجت من اللسان سجلت لك أم عليك، فإن كانت في خير أو معروف، فهي لك، وإن كانت في شر أو ضر أو أذى من أي نوع كان، فهي عليك، فعند الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٤) وعند البخاري

---

(١) نفسه ٢٦٠.

(٢) جامع الأصول ٣٤٧.

(٣) ق ١٨.

(٤) جامع الأصول ٩٤٠٦ وهو صحيح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولمسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»(١) وفي رواية «يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وفي رواية الترمذي «يهوي بها سبعين خريفًا في النار».

وعن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله» وهو حسن، لذلك كانت آفات اللسان من أكبر البلايا التي تجتاح حسنات المسلم، وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة، أن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعاً وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»(٢) منعاً وهات: أي يمنع أداء ما عليه ويطلب ما له، قيل وقال: يدل على كثرة الكلام بغير فائدة وقد يفيد نقل الكلام بلا توثيق أو إشاعة خبر ما يثير البلبلة.

ففي الحديث الطويل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ: يعملون﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كف عنك هذا، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟»(٣)

---

(١) جامع الأصول ٩٤١٠.

(٢) جامع الصحيحين ٩٣٩٤.

(٣) رواه الترمذي وهو حديث حسن صحيح.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ -- أمانة الكلمة:

الرسل صلوات الله عليهم هم القدوة في نقل أمانة الكلمة، لأنهم المؤتمنون من الله عليها، فكل نبي حملها وبلغها إلى قومه كما أمره الله تعالى بها، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(١) كما ذكر الله سبحانه وتعالى ما كان بين النبي ﷺ وكفار قريش لما سمعوا القرآن، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) إن قريشًا تريد تبديل القرآن على هواها وطلبت ذلك من النبي ﷺ، فبين لهم أن هذا من عند الله وأنه ﷺ مبلغ فقط، يبلغ ما يوحى إليه من ربه دون تبديل أو تغيير، فإن فعل ذلك فله عذاب يوم عظيم، فالأمر فيه ضبط محكم من الله، والله سبحانه عالم أين يجعل رسالته في رسل اختارهم يتحملون الأمانة، وقال تعالى أيضًا مبينًا دقة البلاغ وأدائه كما أراد الله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾(٣) لذلك كان قول جميع الرسل لأقوامهم عند أداء الرسالة ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾(٤) وقال أيضًا: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٥).

ومن بعد الرسل يأتي العلماء العاملون الذين يحملون أمانة الكلمة ويعملون على تبليغها للناس، فهم يسلكون مسلك الرسل لا يريدون مالاً لذلك ولا شهرة، فعن أبي

---

(١) الأعراف ١٠٥.

(٢) يونس ١٥.

(٣) الحاقة ٤٤ – ٤٧.

(٤) الأعراف ٩٣.

(٥) النحل ٣٥.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الدرداء قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر» وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من يتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»(١) ولقد حث النبي ﷺ المسلمين على التبليغ ورغبهم فيه، فعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضّر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلّغ أوعى من سامع»(٢) وهو دعاء خير لمن بلغ الحديث كما سمعه، وبالمقابل تهدد من يكذب بالتبليغ على رسول الله ﷺ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي يلج النار»(٣)

ولقد عاب عليه الصلاة والسلام على من يتشدق بالكلام ويتقعر فيه ويخطب ليجمع حوله الناس ويكوّن أتباعاً، وعن أنس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مررت يوم أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»(٤).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول

---

(١) رواه الترمذي وهو حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي وهو حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي وهو حسن صحيح.

(٤) رواه أحمد وهو حسن.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، فقال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عنك عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار..» فهذا مصير الذي لا يؤتمن على العلم فقد قام في مقام الأنبياء، ولكنه خان العلم الذي تعلمه، فعند الترمذي عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» رواه الترمذي والمماراة: المجادلة والمناظرة.

فالكلمة في الحق لها ثوابها الكبير، ففي الحديث الشريف، أن رجلاً سأل النبي ﷺ «أي الجهاد أفضل فقال: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» رواه النسائي بإسناد صحيح.

المنافقون وتضييع أمانة الكلمة:

أما المنافقون فقد ضيعوا أمانة الكلمة وتلاعبوا في القول حتى خدعوا المؤمنين، فإن جلسوا معهم أظهروا الإيمان وتكلموا به ولبسوا لباسه، فلا يشك الجالس معهم أنهم مؤمنون متحمسون لدينهم يقرؤون القرآن ويذكرون الله، لكنهم إذا خلوا إلى شياطينهم أظهروا الكفر وانتقصوا من الإسلام، فأخبر الله نبيه خبرهم فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١)

---

(١) البقرة ٨ – ١٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكانوا أشد خطراً على المسلمين من الكافرين، لكن الله فضحهم لنبيه وكشفهم له وكان أبو عامر الراهب زعيمهم الذي يجتمعون إليه، لذلك بنوا له مسجد الضرار لكي يجتمعوا إليه سراً في هذا المسجد ويخططون لأذية المسلمين، فأطلع الله نبيه على ما خططوا، فأمر عليه الصلاة والسلام بهدم المسجد وتحريقه.

وقد كانوا ينشرون الشائعات المغرضة ويحرفون ما يسمعون من الكلام يوحي لهم به أعداء الله اليهود، قال الله تعالى يكشف هاتين الفئتين: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾(١) وقال أيضاً: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾(٢) وقد نزلت في بيت نفاق فيهم بشر بن أبيرق الذي كان يقول شعراً يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ وينسبه إلى بعض العرب، فيقول قال فلان وقال فلان، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ هذا الشعر قالوا: والله ما يقوله إلا هذا الخبيث لأنهم كانوا لا يشكون في نفاقه وقد ورد في الحديث المتفق عليه: «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»(٣) وهذا المذموم هو الإمّعة الذي يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساء الناس أسأت، فإذا حضر مجلساً فيه دين وعلم كان متديناً عالماً، وإن حضر مجلساً فيه غيبة وفسق ومجون كان منهم. وقد سأل ناس عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقالوا: «إننا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ»(٤).

---

(١) المائدة ٤١.

(٢) النساء ١٠٨.

(٣) من حديث أبي هريرة رياض الصالحين ص ٥٨٦.

(٤) رواه البخاري.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اليهود وأمانة الكلمة:

سأل كعب الأحبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسمح له بقراءة التوراة فقال عمر: إن كنت تعلم أنها التي أنزلت على موسى فافعل فسكت كعب.

وهذا يدل على أن التوراة قد دخلها التحريف باعترافهم، فاليهود لم يكونوا أمناء على كتاب الله، فقد خانوا الأمانة، وقد اشتهروا في هذا العمل، قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(١) وعن ابن عباس في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ قال: تبديل اليهود التوراة وفي رواية أخرى يغيرون حدود الله في التوراة، وهي آية الرجم للزاني المحصن، فكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر بالرجم لمن أحصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم - أي تسخيم الوجه بالسواد - والإركاب على حمارين مقلوبين - أي الزناة وجههم للخلف - فلما وقع الزنابين رجل وامرأة من اليهود بعد الهجرة قالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالجلد والتحميم والإركاب فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه، ولما جاؤوا إلى النبي ﷺ قال: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوارة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام أرفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما» وهذا لفظ البخاري ولعل الرواية الثانية تبين مدى تغييرهم الحكم رسميًا فعن أبي هريرة قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا: يا أبا القاسم ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم فقام على الباب فقال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما

---

(١) النساء ٤٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن» قالوا: يحمم ويجبه ويجلد، والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما، قال وسكت شاب منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألظ به - ألح عليه - رسول الله ﷺ النشدة فقال: اللهم إذ نشدتنا فإنا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله» فقال الشاب: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في إثرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه وقالوا: لا نرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، فقال النبي ﷺ «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما. وهنا نرى أن اليهود لم يتحملوا أمانة الكلمة وكان لهم موقف أيضًا من عبد الله بن سلام لما أسلم.

قصة اليهود مع عبد الله بن سلام:

كان حبرًا عالمًا اسمه الحصين بن سلام، قال وهو يروي قصة إسلامه: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له - نترقب - فكنت مسرًا لذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحرث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت، قال: فقلت لها: أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به، قال: فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم، قال فقالت: فذاك إذًا، قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، قال: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم، ثم تسألهم

www.alukah.net شبكة الألوكة

علي حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي؛ فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: «أي رجل الحصين بن سلام فيكم»؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فو الله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور، قال: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة فحسن إسلامها»(١).

وهكذا نجدهم غيروا كلمة الحق قبل أن ينفضوا من مجلسهم.

ومن تبديلهم لكلمة الحق ما ذكر الله عنهم وأخبر ما فعلوه من تبديل الكلام فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾(٢)

فتلاعبوا وقالوا: حنطة في شعيرة وفي رواية البخاري كانوا يزحفون على أستاههم فقالوا: حبة في شعرة، وهذا بدل دخولهم كما أمرهم الله أن يدخلوا سجداً أي راكعين وهم يقولون: حطة بمعنى احطط عنا خطايانا، أو بمعنى طلب المغفرة لما ارتكبوه من مخالفات بعد خروجهم مع موسى عليه السلام من مصر.

ومن أمانة الكلمة عدم كتمان العلم.

ولقد اشتهر اليهود بكتم العلم فكشف أمرهم من يعلم السر وأخفى فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ص ١٣٨ ج ٢.

(٢) البقرة ٥٨ – ٥٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾(١) وهؤلاء المعنيون بهذه الآية أحبار يهود، أمثال حيي بن أخطب وجماعته الذين وفدوا على قريش ليحرضوهم ضد النبي ﷺ فسألتهم قريش: أديننا خير أم دين محمد؟

فكان جواب هؤلاء الأحبار وفتياهم بمنتهى الكذب والمذلة، حيث قالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منهم، وهم يعلمون أن قريشًا وثنية تعبد الجبت والطاغوت فكانت هذه الفتوى الضالة من أجل تجييش قريش وتهييجها ضد المسلمين وكانت غزوة الخندق.

وقد ذكر الله تعالى كتمانهم للعلم في سور كثيرة في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢) وقال أيضًا: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٣) وقال أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(٤) لذلك استحقوا اللعنة على كتمانهم العلم وعدم الوفاء بكلمة الحق، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾(٥).

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»(٦) وهو حسن.

---

(١) النساء ٥١.
(٢) البقرة ٤١.
(٣) آل عمران: ٧١.
(٤) آل عمران ١٨٧.
(٥) البقرة ١٥٩.
(٦) رواه أبو داود ص ٣٢١ ج ٣.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

النصارى سلكوا طريق اليهود في تضييع كلمة الحق:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(١) فهل أقاموا التوراة والإنجيل؟ لقد بشرت التوراة بالنبي ﷺ وكذلك الإنجيل، وأمروا باتباع محمد ﷺ والإيمان برسالته فخالفوها فما زادهم إشراق الحق ونصوعه إلا طغياناً وكفراً، حيث رفضوا الإسلام بل عادوه وحاربوه، وبقي النصارى على قولهم – الذي ما أنزل الله به من سلطان – بأنهم قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، وقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وهذا من تحريف كتبهم إذ الصحيح أن عيسى عليه السلام جاءهم بالإيمان الصحيح الذي يدعوهم فيه إلى عبادة الله وحده ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾(٢).

وقال لهم أيضاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٣) فعند ظهور البينات والحجة البالغة لجؤوا إلى الكذب وقول: إن هذا سحر، أو إن هذا ليس هو الرسول المنتظر المخبر عنه فكذبوا وعاندوا.

وقد دعاهم النبي ﷺ إلى كلمة سواء قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٤) أي اعبدوا الله ولا تتخذوا البشر أرباباً كما

---

(١) المائدة: ٦٨.

(٢) نفسه ٧٢.

(٣) الصف: ٦.

(٤) آل عمران: ٦٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

زعمتم عن عيسى ابن مريم، ودعا وفد نصارى نجران إلى المباهلة، وهي الملاعنة، فرضوا أولاً ثم امتنعوا خوفاً لعلمهم أنهم على غير الحق ففي الحديث عن حذيفة قال: جاء السيد والعاقب – صاحبا نجران – إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه: لاتفعل والله لئن كان نبيًا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أمين، فقال: لأبعثن معكما رجلاً أميناً حق أمين حق أمين، فقال: قم يا أبا عبيدة، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة»(١).

٣ – المديح:

المديح في غير حق يضيع أمانة الكلمة سواء كان مدح الرجل نفسه أو مدحه لغيره وقد عاب الله على من فعل هذا فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٢) وقال أيضًا: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾(٣) ففي الآية الأولى تعجب من حال هؤلاء الذين يزكون أنفسهم، قال في تفسير فتح القدير: اتفق المفسرون على أن المراد اليهود.. وذلك في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وقال الضحاك: هو قولهم لا ذنوب لنا ونحن كالأطفال وقيل: ثناء بعضهم على بعض، ثم قال ومعنى التزكية: التطهير والتنزيه، واللفظ يتناول كل من زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم، ويدخل في هذا التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية، كمحيي الدين، وعز الدين، ونحوهما اهـ. وفي تفسير ابن كثير: قيل نزلت في ذم التمادح والتزكية، وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن احثوا في وجوه

---

(١) جامع الأصول ٩٥٠٨ وهو في الصحيحين.

(٢) النساء ٤٩.

(٣) النجم: ٣٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net

المداحين التراب، وعن أبي بكرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك» ثم قال: «إن كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدًا» رواه البخاري ومسلم. ١ هـ ابن كثير.

وهذا الحديث يبين ما يحصل للممدوح إن مدح بشكل مبالغ فيه، وفيه ضرر بالغ على الممدوح بينه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «ويحك قطعت عنق صاحبك» فالمادح بهذا الشكل أعتبره غير محب للممدوح، لأنه بمدحه الزائد يتسبب في أذيته، وقد قص لي صديق أنه شهد مباراة تصفية على المركز الأول في كرة الطاولة ويريد لزميله المتباري أن يفوز بها لكن منافسه كان أكثر مهارة من زميله ففطن إلى هذا الحديث فأخذ يطري على منافس زميله فيسمعه كلاماً من مثل: انظر إلى كيفية إرساله للكرة، لا أحد يتقن اللعب مثل هذا البطل، انظر كيف يرد الكرة مهارة بالغة! إلى غير ذلك من مثل هذا الكلام، قال محدثي: فوقع هذا اللاعب لما سمع مني الإطراء في ارتباك شديد حتى فاتته كرات سهلة وبالتالي خسر وفاز زميلي الذي كنت أتمنى فوزه. قلت: وهذا مجرب أيضًا خصوصاً مع النساء فلو دخل رجل المطبخ ورأى زوجته تطبخ ثم كال لها المدح الزائد - وهي تطبخ - في طيب طعامها وتحسينه وتذويقه وأنها من أحسن طاهيات العالم اتقاناً لاحترق في ذلك الوقت طعامها أو لكان مالحاً أو لكسرت طبقًا أو أكثر ... فليحذر الإنسان من المدح المبالغ فيه فإنه يقطع الأعناق فعلاً.

ومن المديح المتجاوز للحد ما يفعله الشعراء حين يمدحون الملوك وأهل الجاه والسلطان ويبالغون في المديح مبالغة تخرجهم عن أمانة الكلمة كما فعل ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز الفاطمي حيث رفعه مرة للألوهية وأخرى لمقام النبوة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عمر بن عبد العزيز والشعراء:

لما استُخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه الشعراء، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، فدخل عليه عدي بن أرطأة فكلم بهم أمير المؤمنين، فقال: يا عدي ما لي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله قد مُدح وأعطى وفيه أسوة لكل مسلم، قال: من مدحه؟ قال: عباس بن مرداس، فكساه حلة قطع بها لسانه، قال: صدقت فمن بالباب؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي، قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه ثم ذكر له أبياتاً منها:

ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي ... هنالك أوفي جنة أو جهنم

ثم قيل له: جميل بن معمر فقال أليس القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت ... يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها

والله لا يدخل أبداً، ثم قيل له: كثير عزة، فقال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم ... يبكون من حذر الفراق قعودا

لو يسمعون كما سمعت حديثها ... خروا لعزة ركعًا وسجودا

أبعده الله، فو الله لا يدخل أبداً، ثم قيل له: الأحوص، فقال: لا دخل أبداً وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها:

الله بيني وبين سيدها ... يفرعني بها وأتبع

ثم منع الفرزدق ومنع الأخطل وأذن لجرير لأنه القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

فدخل جرير وهو ينشد:

إن الذي بعث النبي محمداً ... جعل الخلافة في إمام عادل

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقًا، ثم أنشد:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى أن قال:

هذي الأرامل قد قضيّت حاجتها ... فمني لحاجة هذا الأرمل الذكر؟

فقال: يا جرير ما أرى لك فيما هاهنا حقاً، قال: يا أمير المؤمنين إني ابن سبيل منقطع به، فقال له: ويحك يا جرير قد ولينا هذا الأمر ولا نملك إلا ثلاثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقية، فأخذها جرير وقال: والله يا أمير المؤمنين لهي أحب مال اكتسبته. وفي رواية أخرى أذن لكثير عزة وقال له: قل ولا تقل إلا حقاً فإن الله سائلك فقال:

وليت ولم تشتم علياً ولم تُخف ... بريًا ولم تتبع مقاله مجرم

وقلت فصدقت الذي قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم

إلى آخر القصيدة، ثم قال: يا كثير إن الله سائلك عن كل ما قلت.

ثم أذن للأحوص وقال: قل، ولا تقل، إلا حقاً فإن الله سائلك، فأنشده:

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف ... بمنطق حق أو بمنطق باطل

فلاتقبلن إلا الذي وافق الرضا ... ولا ترجعنا كالنساء الأرامل

إلى آخر القصيدة، ثم قال له: يا أحوص إن الله سائلك عن كل ما قلت، ثم تقدم إليه نصيب فاستأذن في الإنشاء فلم يأذن له وأمره أن يلحق بدايق، وهي قرية قرب حلب، ثم قال لهم ما عندي ما أعطيكم وأواسيكم فانتظروا حتى يخرج عطائي، ولما خرج عطاؤه أعطى اللذين أنشدا ثلاثمائة درهم ولنصيب مائة وخمسين (١).

قال الإمام النووي في رياض الصالحين تعليقًا على المدح بعد أن أورد أحاديث النهي:

فهذه الأحاديث في النهي، وجاء في الإباحة أحاديث كثيرة صحيحة، قال العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال: إن كان الممدوح عنده كمال إيمان

---

(١) انظر تفصيل ذلك في قصص العرب ص ٢٤٨ ج ٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقين ورياضة نفس ومعرفة تامة بحيث لا يفتتن ولا يغتر بذلك ولا تلعب به نفسه فليس بحرام ولا مكروه وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور كره مدحه في وجهه كراهة شديدة، وعلى هذا التفصيل تنزل الأحاديث المختلفة في ذلك، ومما جاء في الإباحة قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أرجو أن تكون منهم» أي من الذين يُدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها، وفي الحديث الآخر «لست منهم» أي لست من الذين يسبلون أزرهم خيلاء، وقال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك».

ومن أمانة الكلمة: ألا يتحدث إنسان بالباطل ليضحك الناس، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي عن جد حكيم بن بهز قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له» وهو حسن.

ومن أمانة الكلمة: ألا يكون في المجلس غيبة ولا نميمة فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» وإسناده صحيح(١) وفي حديث كعب بن مالك حين يروي قصة توبته لتخلفه عن غزوة تبوك قال: قال النبي ﷺ وهو جالس في القوم بتبوك: (٢) «ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه - يعني إشارة إلى تكبره وإعجابه بنفسه وهو غمز بكعب - فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

ومن أمانة الكلمة: ألا يمشي الرجل بالنميمة، فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام» متفق عليه، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بقبرين

---

(١) رياض الصالحين رواه أبو داود.

(٢) متفق عليه.

تحميل من شبكة الألوكة www.alukah.net

يعذبان فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» متفق عليه.

٤ - شهادة الحق:

ومن أمانة الكلمة شهادة الحق، وهو الموضوع الأساس للوصية الثامنة ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ فالشهادة يجب أن تكون شهادة حق وعدل لكي تضمن الحقوق، فإن التغيير في الشهادة يؤدي إلى التغيير في الحكم، وبالتالي ضياع الحقوق والله تعالى أمر بأداء الحقوق، ففي القضاء بين المتخاصمين، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار» أخرجه الشيخان»(١)

فهذا إذا كان أحد المتخاصمين أفصح من الآخر وأبلغ في الكلام، فإنه قد يغير منطوق الحكم، وللقاضي ما يسمع، لأنه لم يشاهد الواقعة وإنما له الدلائل والقرائن، فكيف بالشهود إن غيروا وبدلوا فيما شاهدوا؟!

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) فيتحمل الشاهد إثم ما يبدل من الشهادة وكل حكم يقع نتيجة هذه الشهادة، وقال أيضًا: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾(٣) والكتمان يكون إما باخفائها فلا يشهد فيضيع الحق، أو بإخفاء بعض الحقائق التي توصل إلى الحق، فيضيع الحق بسبب هذا الكتمان، وعلى كلتا الحالتين فإن كاتم الشهادة هو المسؤول والآثم بما فعل، والإثم هنا بمعنى الخطيئة فجعلها الله سبحانه وتعالى متعلقة

---

(١) جامع الأصول ٧٦٧٧.

(٢) البقرة ١٨١.

(٣) البقرة ٢٨٣.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بأهم شيء في الإنسان وهو القلب، والقلب إذا ملئ بالخطايا اسود وغلفه الران، فعند ذلك يفقد الإحساس ويموت، لا موت حركة وإنما موت حس وإدراك، فيصبح صاحبه فظًا غليظًا لا يميز بين الخير والشر.

والظلم درجات وأشده كتمان الشهادة إذا عرفها قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١) وقيل إنها نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفات النبي محمد ﷺ مع أن الله تعالى أطلعهم عليها، وختم الله سبحانه الآية بالتهديد لهؤلاء ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بأنه لن يترك عقوبتهم لهذا الظلم البالغ الأثر. وقد أمر الله سبحانه أن تكون الشهادة بالقسط والعدل، حتى وإن كانت ستؤثر على القرابة مهما كانت درجتهم لأن شهادة الحق هي المقدمة، ولا تتعارض مع العقوق، فمن البر قول الحق، وإن كان هذا سيؤثر على الوالدين لأن أداء الحق الذي عليهما في الدنيا خير من أن يبقى فيؤديانه في الآخرة، فكان من البر أن يشهد الولد ليخلص أبويه من حقوق الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(٢) فأمر الله سبحانه بأداء شهادة الحق مهما كانت نتائجها ونهى عن اتباع الهوى في الشهادة، وحذر من العدول عن الحق أو الميل عنه أو الأعراض الذي يؤدي إلى تغيير الشهادة أو ضياع الحقوق، لأن الله خبير بما نعمل. وعلى المسلم أن يأتي من نفسه للإدلاء بالشهادة خصوصاً إذا احتيج إلى شهادته، فعند مسلم عن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»(٣) وفي رواية مالك: «هو الذي يخبر بالشهادة التي لا يعلم بها الذي هي له، فيأتي بها الإمام

---

(١) البقرة ١٤٠.

(٢) النساء ١٣٥.

(٣) جامع الأصول ٧٧٠٠.

www.alukah.net من شبكة الألوكة

فيقضي له بها» .

وكما أمر الله سبحانه وتعالى بالقسط في الشهادة وقول الحق ولو على النفس أو الوالدين والأقربين، فكذلك أرادها أن تكون بالعدل والحق أيضًا وإن كانت بين الرجل وأعدائه، فلا يجب أن تغير أو تكتم، وإنما تؤدى على وجهها الحق.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١)

ومعنى لا يجرمنكم شنآن قوم: أي لا يحملنكم بغضهم أو عداوتهم على الظلم وترك شهادة الحق.

وإنما عليكم رغم ذلك أن تسلكوا طريق الحق والعدل معهم، وهذا العمل هو الذي يقربكم من التقوى أو الذي يقيكم من النار.

شهادة الزور والتغليظ على فاعلها:

قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(٢) فعند الترمذي أن النبي ﷺ قام خطيبًا فقال: «أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثم تلا هذه الآية. فما أغلظها من قبيح، وحري بالمسلم أن يبتعد عنها وألا يدلي بمثل هذه الشهادة إن كان يريد المحافظة على إيمانه، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا سرول الله قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال: «ألا وقول الزور»(٣) فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر فقال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقال: ألا أنبئكم

---

(١) المائدة ٨.

(٢) الحج ٣٠.

(٣) رياض الصالحين جامع الأصول ٨٢٢٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بالكبائر؟ قول الزور أو قال: شهادة الزور» أخرجه البخاري ومسلم. وفي رواية عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» رواه البخاري، ولما سأل أعرابي النبي ﷺ عن اليمين الغموس قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها كاذب» وقيل: هي التي تغمس حالفها في الإثم، وقيل في النار.

نماذج من قضاء المسلمين:

عن سعيد بن المسيب أن مسلماً ويهودياً اختصما إلى عمر، فرأى الحق لليهودي فقضى له عمر به، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق، فضربه عمر بالدرة وقال: وما يدريك؟ فقال اليهودي: والله إنا لنجد في التوراة أنه ليس من قاض يقضي الحق إلا كان عن يمينه ملك وعن شماله ملك يسددانه ويوفقانه للحق ما دام مع الحق فإذا ترك الحق عرجا وتركاه» رواه في الموطأ.

وعن عبد الله أبي حدرد بن الأسلمي قال: كان ليهودي علي أربعة دراهم فاستعدى علي فقال: يا محمد! إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها قال: أعطه حقه، قال: والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها قال: أعطه حقه، قال: والذي نفسي بيده ما أقدر عليها، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئًا فأرجع فأقضيه، قال: أعطه حقه، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع، فخرج عبد الله بن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال: اشتر مني هذه البردة، فباعها منه بأربعة دراهم» وهكذا قضى رسول الله ﷺ لليهودي على أبي حدرد وأمره بالدفع وهو يعلم أنه لا يملك سوى بردته التي عليه ولكنه الحق. «وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين: عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضر بني بالسوط ويقول: أنا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويقدم معه ابنه، فقدم فقال: عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضربه، فجعل يضربه بالسوط ويقول: عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس: فضرب والله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال للمصري: ضع على صلعة عمرو فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني»[1] وكتب أهل سمرقند إلى عمر بن عبد العزيز: إن قتيبة بن مسلم غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فائذن لنا فليقدم منا وفد إلى أمير المؤمنين، فأذن لهم وذكروا ظلامتهم، فكتب عمر إلى عامله: إن أهل سمرقند قد شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة، ففعل الوالي ذلك وقضى القاضي بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوا أهل سمرقند ، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل سمرقند: بل نرضى بما كان ولا نجدد حرباً وتراضوا بذلك. وهذا من عدل الإسلام وسمو القضاء فيه.

الوصية التاسعة:

قال الله تعالى: ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾

الوفاء بالعهد، والوفاء بالوعد، أما الوفاء بالعهد فهو أن يعطي المسلمون عهداً فيه التزام وضمان لغيرهم فيلتزمون بما عاهدوا، ونقيضه يسمى الغدر، أما الوفاء بالوعد، فهو أن يلتزم المسلم بما يعد فيؤديه، وهذا غالباً، يكون في التعامل اليومي بين المسلمين، ونقيضه يسمى الخُلْف.

---

(١) حياة الصحابة ج ٨٨ ج ٢.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الالتزام بالعهد وأهميته عند المسلمين:

ورد في مختار الصحاح، العهد: الأمان واليمين والموثق والذمة والحفاظ والوصية اهـ. وزاد في القاموس المحيط، والضمان والوفاء.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالوفاء بالعهد وأثابهم على ذلك كما هددهم إذا أخلوا بما عاهدوا أو غدروا، وقد ورد في ذلك آيات كثيرة قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾(٢) وتهدد سبحانه من ينقض العهد، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٣) وقد بين أن نقض العهد من صفات اليهود فقال تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٤)

وعندما أمر الله نبيه بإعلان البراءة من المشركين ومنعهم من دخول مكة جعل لمن لهم عهد عند المسلمين فسحة كافية ليبلغوا مأمنهم وذلك مراعاة من الله تعالى للعهود فقال تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾(٥)

---

(١) النحل ٩١.

(٢) الإسراء ٣٤.

(٣) البقرة ٢٧.

(٤) البقرة ١٠٠.

(٥) التوبة ١ ـ ٢.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فأعطاهم أربعة أشهر مهلة ثم يفسخ العهد، فلم يبلغ ما تعاهدوا عليه بتاً وقطعاً وإلا كان هذا من الغدر فإذا انقضت المهلة كانوا في حل من عهدهم وجاز للمسلمين قتالهم، ومع ذلك استثني المعاهَدين الذين حافظوا على العهد ولم ينقضوه فقال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(١) وعلى هذه الآية تكون البراءة ممن نقض العهد أو غدر فإنه أعطي رغم ذلك أربعة أشهر فسحة ليتدبر أمره وحتى لا يقول: إن المسلمين غدروا به، أما الذين حافظوا على المعاهدة فإن الله أمر بالوفاء لهم بالعهد وهذه شريعة المسلمين، يحافظون بكل قوة على العهد ويوفون لمن عاهدوه، فإذا كان النقض كان من طرف الأعداء قال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾(٢) وقال أيضًا: ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾(٣) أي لا يراعون في مؤمن عهداً ولا ذمة ولا أماناً فهم المعتدون دوماً. وأكد على نكثهم للعهود في آية أخرى فقال: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ فوصف غدرهم فهم لا عهد عندهم، ولا أيمان يوثقون بها عهدهم لأنهم كفار، فقاتلوهم حتى ينتهوا من ضلالهم.

وقد وصفهم الله بما يستحقون فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾(٤) وكانت المفارقة الكبيرة بين أهل الكفر وأهل الإيمان، هي بالوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٥).

---

(١) التوبة ٤.
(٢) نفسه ٨.
(٣) نفسه ١٠.
(٤) الأنفال ٥٥ – ٥٦.
(٥) آل عمران ٧٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أمثلة من وفاء المسلمين بالعهود:

عن العرباض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ خيبر ومعه من معه من أصحابه، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً منكراً، فأقبل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة» قال: فاجتمعوا ثم صلى بهم النبي ﷺ ثم قام فقال: أيحسب أحدكم متكئًا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئًا إلا ما في هذا القرآن؟ ألا إني والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم»(١) وكان النبي ﷺ قد ترك يهود خيبر على أمان بعد فتحها ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: إن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز وإن رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها وكانت الأرض لما ظهر عليها لله ولرسوله وللمسلمين فأراد إخراج اليهود منها فسألت اليهود رسول الله ﷺ أن يقرهم بها على أن يكفوا العمل، ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله ﷺ لهم: «نقركم بها على ذلك ما شئنا» فقروا بها حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء وأريحا(٢).

إذًا كان إقرارهم في خيبر مشروطاً، فماذا حدث حتى أخرجهم منها عمر بن الخطاب؟ عن عبد الله بن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ أهل خيبر، فقاتلهم حتى ألجأهم إلى قصرهم وغلبهم على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة - أي السلاح -

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) جامع الأصول ١١٣١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويخرجون منها، واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئًا فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد فغيبوا مسكًا – جلداً – فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت بنو النضير، فقال رسول الله ﷺ لعم حيي – واسمه سعية – ما فعل مسك حيي الذي جاء به من بني النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك وقد كان حيي قتل قبل ذلك فدفع رسول الله ﷺ سعيه إلى الزبير فمسه بعذاب فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة ههنا فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، أحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب وسبي رسول الله ﷺ نساءهم ذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا وأراد أن يجليهم منها فقالوا: يا محمد، دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وشيء، ما بدا لرسول الله ﷺ وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم في كل عام فيخرصها عليهم – أي يقدر ما فيها من ثمر – ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه – دقة تقديره للثمر – وأرادوا أن يرشوه، فقال عبد الله: تطعمونني السحت والله لقد جئتكم من أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وكان رسول الله ﷺ يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقًا من تمر كل عام وعشرين وسقًا من شعير، فلما كان زمن عمر بن الخطاب غشّوا المسلمين وألقوا ابن عمر من فوق بيت، ففدعوا يديه – أي أمالوها ورضّوها من السقوط – فقال عمر بن الخطاب: من كان له سهم بخيبر فليحضر حتى نقسمها بينهم – أي بين المسلمين الذين كانوا في الفتح – فقسمها عمر بينهم فقال رئيسهم: – أي رئيس يهود لا تخرجنا، دعنا نكون فيها كما أقرنا رسول الله وأبوبكر فقال عمر لرئيسهم: أتراه سُقط علي قول رسول الله ﷺ: كيف بك إذا رقصتْ بك راحلتك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نحو الشام يوماً ثم يوماً ثم يوماً؟ وقسمها عمر بين من كان شهد خيبر من أهل الحديبية»[1] أخرجه البخاري وفي رواية أخرى للبخاري «فلما أجمع عمر على ذلك - أي إجلائهم - أتاه أحد بني أبي الحقيق - زعيم اليهود - فقال: يا أمير المؤمنين، أتخرجنا وقد أقرنا محمد، وعاملنا على الأموال وشرط لنا؟ فقال عمر: أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ لك: كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك - ناقتك - ليلة بعد ليلة؟ فقال: كان ذلك هُزيلة من أبي القاسم، قال: كذبت يا عدو الله ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل﴾ فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالاً وإبلاً وعروضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك»[2].

ومن قصص الالتزام بالعهود:

وعن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس - أو برذون - وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر وفاء لاغدر، فإذا هو عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» فرجع معاوية، ومعناه لا يفعل شيئًا مما فعله معاوية قبل انقضاء العهد أو ينبذ إليهم على سواء أي يعلمهم فلا يغدر بهم وهذا من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[3] والمعنى كما في تفسير فتح القدير: أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة، وهذا الحكم لمن كان بينه وبين المسلمين عهد، وإلا فالنبي ﷺ كان يبغت الكفار إذا أراد حربهم ويورّي عندما يتجهز حتى لا

---

(١) جامع الأصول ١١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ١١٢٩.

(٣) الأنفال ٥٧.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يعلم به أعداؤه وقال: «الحرب خدعة»(١) وقال: (إنا إذا نزلنا بساح قوم فساء صباح المنذرين)(٢) وهذا عند ما يصبحهم بغتة.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ فكتب إلي: «إنما كان ذلك في أول الإسلام وقد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارّون وأنعامهم تُسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية، حدثني بذلك عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش»(٣) ومعنى غارون: أي غافلون غير منتبهين فباغتهم وهم على هذه الحالة.

وهؤلاء لم يكن لهم عهد عند رسول الله، وأخبر النبي ﷺ أصحابه أنهم ما التزموا العهد والوفاء به فإن الله سبحانه فاتح عليهم الدنيا وإذا انتهكوا ذمة الله وذمة رسوله فإن الله مانعهم ذلك، فعند البخاري عند أبي هريرة قال: «كيف أنتم إذا لم تجتبوا درهماً ولا ديناراً؟ فقيل له: وكيف ترى ذلك كائنًا يا أبا هريرة؟ قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده عن الصادق المصدوق ﷺ، قالوا: عمّ ذلك؟ قال تنتهك ذمة الله وذمة رسوله فيشد الله قلوب أهل الذمة فيمنعون ما في أيديهم)(٤) لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون على تطبيق تعاليم النبي ﷺ ولا يتخطونها ففي تطبيقها يُنزل الله النصر على المسلمين، وكانوا لا يقرون أي جندي على الخطأ حتى وإن جلب لهم النصر الظاهري لأن رسالتهم أسمى من الانتصار في ساحة المعركة فقط، إنهم يريدون أن يدخلوا الإسلام بهديه إلى كل قلب وبيت فلا يوافقون على الغدر مطلقًا وقد رأينا من قبل تكبير عمرو بن عبسة وهو يقاتل في جيش معاوية

---

(١) رواه البخاري ومسلم جامع الأصول ١٠٥٤.

(٢) رواه الستة عن أنس ١٠٨٥.

(٣) جامع الأصول ١٠٧٤.

(٤) المصدر نفسه ١١٣٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويستنكر على معاوية ما يفعله خلاف ما أمر به رسول الله ﷺ، ففي الموطأ أن عمر بن الخطاب كتب إلى عامل جيش كان بعثه: إنه بلغني أن رجالاً منكم يطلبون العلج - الرجل الفارسي أو الرومي - حتى إذا أسند في الجبل وامتنع قال رجل: «مَتَرْس» يقول: لا تخف، فإذا أدركه قتله، والذي نفسي بيده لا أعلم مكان أحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه»(١) فهذا تهديد للجندي المسلم الذي يسلك سلوك الغادرين ويقول للعدو الفار الذي أصبح في أعلى الجبل أو في حصن منيع: انزل لا تخف ويؤمنه ثم إذا نزل قتله، فأقسم عمر أنه سيقتل من يفعل هذا من جنود المسلمين، كما أن هذا الفعل يجعلهم يفرون ولايستسلمون وكلمة «مترس» فارسية بمعنى: لا تخف.

لقد كان عليه الصلاة ولاسلام يبتعد عن أي فعل قد يؤول أنه نقض للعهد أو فيه غدر فعن أبي رافع قال: بعثتني قريش إلى رسول الله ﷺ فلما رأيت رسول الله ﷺ ألقي في قلبي الإسلام فقلت: يا رسول الله لا أرجع إليهم أبدا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرُد ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع» قال: فذهبت ثم أتيت رسول الله ﷺ فأسلمت»(٢) ومعنى لا أخيس: لا أنقض، والبرد: جمع بريد، وهو الرسول الوارد إليه ليبلغه رسالة الخصم، وهنا في هذا الحديث، لم يقبل النبي ﷺ انضمام أبي رافع إليه لأنه أتى بعهد ولو قبل ذلك لقالت قريش كلاماً كثيراً في هذا الشأن: هدده فأسلم، أو حبسه فأسلم وكانت ستفعل ذلك بمبعوث المسلمين، لكن النبي ﷺ أراد أن ترى قريش فعل أبي رافع عياناً، يرجع إليها بنتيجة المباحثات ثم يعود مسلماً بحريته واختياره فلا يُتّهم المسلمون بقسره على ذلك لأنه وقع في أيديهم.

ولقد كان التهديد بالغاً لمن يعاهد ثم يغدر سواء كان هذا بالنسبة للأشخاص أو

---

(١) جامع الأصول ١١٤٢.

(٢) جامع الأصول ١١٤٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالنسبة لولي أمر المسلمين أو قائدهم، ففي البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»(١).

وفي الموطأ أن عبد الله بن عباس قال: «ما ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو» والختر بمعنى: الغدر.

أمثلة من وفاء المسلمين بالعهد:

ذكر الواقدي تفصيلاً في حصار مدينة بعلبك وأن قسماً من جيشها بقيادة حاكمها هربيس قد حوصروا في قرية محصنة ليس فيها زاد وأبو عبيدة محاصر لبعلبك ومن قبله سعيد بن زيد محاصر لهربيس، فأراد هربيس أن يحتال ليوقع صلحاً مع المسلمين فقال للترجمان: انزل إلى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أماناً واستوثق لنا منهم حتى أنزل إليهم فلعلنا نجري بيننا صلحاً ولعلي أمكر بهم حتى أرجع إلى المدينة، فنزل الترجمان وقال لسعيد بن زيد: جئت لآخذ منك أماناً لبطريقنا ألا تنقض لنا عهداً، فقال سعيد: ليس من أخلاق الأمراء ومن يقود الجيوش أن يغدر بعد الأمان ولسنا بحمد الله ممن ينقض عهداً وقد أعطيت صاحبك أماناً ولمن معه ممن ألقى السلاح وخرج يطلب الأمان مستسلماً، فرجع الترجمان إلى سيده وأعلمه بجواب سعيد وقال له: اخرج وإياكم والغدر فإنه يهلك صاحبه وإن هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم، ثم نقله إلى أبي عبيدة وطلب أبو عبيدة مبلغاً معيناً لقاء الصلح فرضي هربيس به وكتب أبو عبيدة نص الأمان وفيه «ولنا عليكم خراج أرضكم في العام الآتي وأداء الجزية في كل عام وأنتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحاً ولاتكاتبون ملكاً ولاتحدثون حدثاً ولا كنيسة وترون النصح للمسلمين» وقال هربيس: ولنا شرط، فقال أبو عبيدة وما شرطك؟ قال: لا يدخل إلينا من أصحابك أحد وتُنزل صاحبك

---

(١) جامع الأصول ١١٣٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذي تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية، وتدعني أنا من داخل المدينة للإصلاح بين الناس والنظر في أحوالهم ونحن نخرج إلى من تخلفه علينا من أصحابك سوقاً يكون فيه من جميع ما في مدينتنا ولا يدخلون إلينا مخافة أن يغلظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الأمر بيننا وبينكم ويكون سببًا للغدر ونقض العهد.

قال أبو عبيدة: فإذا صالحناكم نجاهد عدوكم لأنكم تصيرون في ذمتنا ويكون الرجل الذي نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيننا وبينكم، قال هربيس: يكون خارج المدينة ويفعل ما يشاء أن يفعله من المحاماة، فقال أبو عبيدة: لكم ذلك، ثم عرض هربيس الاتفاق على أهل بعلبك فأبوا وقالوا: إنا لا نطيق هذا المال فقال هربيس: أتحمل أنا الربع فوافقوا وتم الصلح واستعمل أبو عبيدة رافع السهمي على المدينة مع حامية من الجنود ورجع أبو عبيدة إلى حمص بعد أن أوصى رافعاً بالإحسان إليهم وعدم دخول مدينتهم، ثم إن هذه الحامية مع رافع كانوا يشنون الغارات على الروم والساحل ويعودون بالغنائم ثم يبيعونها من أهل بعلبك بمبالغ زهيدة، ففرح أهل بعلبك وجنوا من ورائهم أرباحاً كثيراً قال: وعرفوا أننا قوم ليس فينا كذب ولا خيانة، ولا نريد ظلم أحد فطابت نفوسهم، ثم إن هربيس حسد أهل البلد على الأرباح فجمع التجار وأهل السوق وطلب منهم أن يعوضوه المال الذي دفعه للصلح وعد نفسه منقذاً للبلد وطلب منهم أن يعطوه عشر الأرباح فرضوا، وعين عليهم عشاراً ليضبط الأرباح فاجتمع له في أربعين يومًا مال عظيم فطمع وجمعهم وطلب الربع فضجوا ووقعت بينه وبينهم حرب فقتلوه وقتلوا أتباعه وضجت البلدة، فسمع جند المسلمين وهم خارج الأسوار الضجيج فقالوا لرافع: أما تسمع أصوات هؤلاء القوم؟ قال سمعت وما عسى أن أصنع بهم، لا يحل لنا الدخول إليهم وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم ونحن أحق بمن أوفى بعهد الله، فإن خرجوا إلينا وأعلمونا نظرنا في أمورهم، ثم خرج أهل بعلبك يهرعون إليه واستنجدوا به وأعلموه بقصتهم فقال: إنا

www.alukah.net

لا نمكنه من ذلك فقالوا: إنا قتلناه، فقال رافع فما الذي تريدونه؟

فقالوا: نريد أن تدخلوا إلى المدينة فإنا قد أطلقنا لكم الدخول إليها.

فقال رافع: لا أقدر حتى أستأذن أبا عبيدة فإن أذن لي دخلت، ثم كتب رافع إلى أبي عبيدة بذلك فأجابه: إن أذنوا لكم فادخلوا، فدخلوها وأصلحوا شأن الناس. فهذا مثال للوفاء بالعهد، حدث في صدر الإسلام، والمثل الثاني حصل في العصر الأوسط في زمن صلاح الدين الأيوبي فإنه لما حصر القدس وضيق عليها وعلم من فيها أنهم لن يستطيعوا المقاومة طلبوا الصلح والأمان، فأمنهم صلاح الدين وفرض عليهم لقاء ذلك مبلغًا قدره: عشرة دنانير عن الرجل، وخمسة عن المرأة، ودينار ان عن كل صغير، وأملهلهم أربعين يومًا، ثم خرج الأغنياء بأموالهم ولم يؤدوا عن الفقراء بل تركوهم لعفو صلاح الدين، وخرج البطرك بالعربات المحملة بالذهب والنفائس ولم يدفع إلا عن نفسه وحاشيته ولم يحفل بفقراء الصليبيين، وقد رأى المسلمون هذه العربات وقلة ما جمعوه بأيديهم من الفتح فمنعهم منها العهد والالتزام به، ولو كان غيرهم لهاجموها وأخذوها، لكنه عهد المسلمين وأمانهم الذي اشتهروا به، ولو غدروا لما كانت لهم الفتوحات، ولما أمنهم الناس فكان الوفاء بالعهد ميزة كبرى وخصيصة مثلى من الخصائص التي اشتهر بها المسلمون. وهكذا حرسهم المسلمون حتى بلغوا مأمنهم في مدينة صور التي اختاروها. وبالمقابل فإنهم في هجمتهم الصليبية الأولى دخلوا مدنًا كثيرة بالأمان ثم ذبحوا أهلها، وكان مثلهم كمثل إخوانهم نصارى الأندلس ومثل المغول أيضًا في نقض العهود وعدم الإلتزام بها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوفاء بالوعد:

والوعد: هو أن يعد الإنسان بشيء لإنسان آخر فينجز ما وعد به، كأن يعده بأن يعطيه مالاً أو يرد له ديناً أو أن يزوره في يوم كذا، أو أن ينجز له عملاً في يوم كذا فينجزه وهكذا، وقال في مختار الصحاح: الوعد يستعمل في الخير والشر، يقال: وعدته خيراً ووعدته شراً، لكني إذا أسقطت كلمة خير أو شر فيكون في الخير: الوعد والعِدَة، وفي الشر: الإيعاد والوعيد، وتواعد القوم: وعد بعضهم بعضاً، وأما في الشر فيقال: اتعدوا، والتوعد: التهدد، والميعاد والمواعدة: الوقت والموضع وكذا: الموعد.

وفي غزوة بدر ألقى النبي ﷺ قتلى الكفار في القليب - بئر - وقال أنس: إن رسول الله ﷺ: «ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم: يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن عتبة أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا؟ فسمع عمر ابن الخطاب قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون؟ أو أنى يجيبون وقد جيفوا؟ قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر»(١) رواه مسلم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم، فأخذ أبوبكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك كثيرًا، فخرج يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾(٢) أخرجه البخاري وفي حديث لمسلم: «فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني» فبماذا وعد الله النبي ﷺ؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

---

(١) جامع الأصول ٦٠٣٣.

(٢) المصدر نفسه ٦٠١٧.

شبكة الألوكة www.alukah.net

وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾(١) فالوعد كان بإحدى الطائفتين، العير أو النفير فكان النصر على الجيش في بدر ونجاة العير، وعند الترمذي عن ابن عباس قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر قيل له: عليك العير ليس دونها شيء قال: فناداه العباس من وثاقه – وكان أسيراً – لا يصلح لك، لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك، قال: «صدقت»(٢).

وآيات الوعد من الله تعالى في القرآن كثيرة حيث أخبر المؤمنين بما وعدهم من جنات يوم القيامة ثواباً لهم ومكافأة لإيمانهم، قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٤) كماوعد الكفار نار جهنم ومن معهم من المنافقين قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(٥) ويذكر المؤمنون الكفار يوم القيامة بهذا الوعد قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(٦) وعندما كذب أهل الشر والفساد الرسل واستضعفوهم واستهزؤوا بهم قالوا لهم من باب التهكم: ائتونا بما

---

(١) الأنفال ٧.

(٢) جامع الأصول ٦٠٤٤.

(٣) المائدة ٩.

(٤) التوبة ٧٢.

(٥) نفسه ٦٨.

(٦) الأعراف ٤٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تعدنا به فأخبر الله عنهم ذلك، وفي قوم صالح المثل لكل المكذبين، قال الله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾(١).

وأما الشيطان فإنه يعد ويخلف، ويلبّس على أتباعه أموراً كثيرة، فيتبعون وراءه السراب، وهو في الحقيقة يعدهم عكس ما يظنون أو يتوقعون، قال الله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) وقال أيضاً مخبراً عن حبائل الشيطان ومظهراً لنواياه تجاه البشر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيداً (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾(٣) ويوم القيامة يكشف عن نفسه تماماً قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾(٤) وأما وعد الله للمؤمنين في الدنيا، فقد وعدهم بالاستخلاف والتمكين في الأرض وعداً مشروطاً بالطاعة والعمل بكتاب الله، وقد أعطاهم ذلك عندما نفذوا الشرط وسحبه منهم عندما خالفوها، وهذا الوعد ساري المفعول في هذه الدنيا فإن التزموا بشرطه استخلفوا ومكنوا وإن أساؤوا نزع

---

(١) الأعراف ٧٧ – ٧٨.

(٢) البقرة ٢٦٨.

(٣) النساء ١١٧ – ١٢٠.

(٤) إبراهيم ٢٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منهم. قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(١)

الوفاء بالوعد من صفات المؤمنين:

والالتزام بالوعد والوفاء به من صفات المؤمنين فالله سبحانه وتعالى علمهم ذلك وبدأ بنفسه سبحانه وتعالى، فقد رأينا من الآيات السابقة أن الله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده وهو ينجزه ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾(٢) وفي قصة موسى ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾(٣) وعليه فالمؤمنون الذين اهتدوا بربهم يحافظون على الموعد ولا يخلفونه، وأما المنافقون والكفار فقدوتهم الشيطان في إخلاف الموعد قال الله تعالى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾(٤) فهذا عن اليهود، أما عن المنافقين قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾(٥) وقال عليه الصلاة والسلام: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا

---

(١) النور ٥٥.

(٢) الزمر ٢٠.

(٣) القصص ١٣.

(٤) طه ٨٦.

(٥) التوبة ٧٥ – ٧٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعد أخلف وإذا عاهد غدر»[1] متفق عليه وعند الخمسة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت له فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[2] وفي رواية إذا ائتمن خان. عوض: إذا وعد أخلف. وعند أبي داود عن عبد الله بن أبي الحماء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث، فبقيت له بقية ووعدته أن آتيه بها في مكان، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه فقال لي: يا فتى لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» وهذا التزام منه ﷺ بالوعد ومن أوفى من رسول الله بوعده؟! وقد خلفه أصحابه في هذا، ولقد أخبر جابر بن عبد الله أن الرسول ﷺ قال له: «لو قد جاء مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا فلم يجيء مال البحرين حتى قبض رسول الله ﷺ – توفي – ثم جاء أبابكر مال البحرين، فقال أبوبكر: من كان له على رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا، قال جابر: فقلت: وعدني رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا وهكذا – فبسط يديه ثلاث مرات – قال جابر: فعد في يدي خمسمائة ثم خمسمائة ثم خمسمائة»[3] أخرجه البخاري ومسلم.

فعلى المسلمين أن يلتزموا بما وعدوا، وأن يتمثلوا أخلاق الإسلام وما دعا إليه ففي رواية لمسلم: «آية المنافق ثلاث وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ثم ذكر إذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا حدث كذب» فكم من الناس من يعيب على المسلمين في هذا الزمان عدم التزامهم بالوعود وإخلالهم بها فلا يفي مقترض بما وعد من رد الدين ولا يفي صانع بما وعد من إنجاز عمله، ولا يفي رجل بما وعد من زمن للحضور فلا

---

(١) جامع الأصول ٩١٨٥.

(٢) المصدر نفسه ٩١٨٤.

(٣) المصدر نفسه ٩٢٦٨.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يحضر إلا متأخراً، حتى صار هذا الخلف بالوعد سمة في كثير من مسلمي اليوم، ويحصيه عليهم أعداؤهم ويعده الجهال من صفات المسلمين وما هو من صفاتهم إنما هو خصلة من خصال المنافقين والمسلم الملتزم بريء من إخلاف الوعد.

الوصية العاشرة:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

فالوصية العاشرة جامعة لما سبق من وصايا مع زيادة عليها لما لم يذكر بالنص فقد شمله الوصية بالتمسك بالدين كله، والظاهر أن النص أكد على الوصايا السابقة بالاسم لأنها أساسيات لا يجوز التهاون فيها، فيكون النص عليها بهذا الشكل أدعى لتذكرها والأخذ بالوصية فيها، لذلك ختمت بالآية الأولى بقوله: ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ وبالآية الثانية بقوله: ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ وبالآية الثالثة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وهي جماع ذلك كله. قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[2] فما الصراط؟ وما المقصود من أتباعه؟

الصراط: هو الطريق، والصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

فعن أبان بن عثمان قال: سأل رجل عبد الله بن مسعود ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد - مفردها جادة - وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مَرَّ بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى

---

(١) آل عمران ١٥.

(٢) مريم ٧٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة» ومن حديث النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»(١) رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن غريب.

وعن ابن مسعود قال: خط رسول الله لله خطاً بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ فالصراط المستقيم هو سبيل الله المتمثل باتباع ما أمر الله ورسوله به، وبالبعد عما نهى الله ورسوله عنه، فمن فعل ذلك كان سالكاً على الصراط المستقيم، فاتباع الصراط المستقيم يعني الأخذ بالدين كله، لذلك يدعوا لمسلم ربه لهدايته وتوفيقه لهذا الصراط المستقيم ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فهو صراط الأنبياء وطريقهم وطريق من سار على نهجهم ممن أنعم الله عليهم ووفقهم إلى هذا المنهج القويم، وأما صراط المغضوب عليهم والضالين فهو مختلف تماماً، إنه ليس بمستقيم إنه السبل المتفرقة التي تتشعب لتضل في التيه عن يمين وشمال. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال: الحمد لله رب العالمين قال: حمدني

---

(١) جامع الأصول ٦١ قال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم قال: أثنى علي عبدي فإذا قال: مالك يوم الدين قال: مجدني عبدي، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1] وهذا الصراط المستقيم الذي تقدم عنى به اتباع الدين الإسلامي وعدم الميل عنه إلى غيره، وهو الذي دعا إلى اتباعه الأنبياءُ والرسل، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[2] وجاء على لسان النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى هداه إلى هذا الصراط قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[3] وهذا الصراط هو الدين الثابت القائم الذي عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو: «الحنيفية السمحة» وكان النبي ﷺ إذا أصبح يقول: «أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» ومن قبل نبينامحمد ﷺ هدى الله نبينا إبراهيم إلى هذا الصراط المستقيم قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4] وكانت الدعوة إلى الصراط المستقيم دعوة الأنبياء لأنها دعوة إلى الدين الحق فعلى لسان عيسى عليه السلام جاءت هذه الدعوة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[5] ولقد بذل إبراهيم كل ما وفي

---

(١) صحيح مسلم رقم ٥٩٨ / الصلاة.

(٢) يس ٦١.

(٣) الأنعام ١٦١.

(٤) النحل ١٢٠ – ١٢١.

(٥) الزخرف ٦٣ – ٦٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسعة لهداية أبيه فكان من كلامه الرقيق له، ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾(١) وعندما كذبت قريش النبي ﷺ وكاد عليه الصلاة والسلام ييأس منهم لأنهم استعملوا كل السبل المانعة لانتشار دعوته، وتوقف عدد المؤمنين عن الزيادة في مكة لما كانت تظهره قريش من العداوة والتعذيب للمؤمنين، لكن الله سبحانه وتعالى ثبت نبيه وقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٢) أي دعوتك هي دعوة الحق فأنت تدعوهم إلى الدين الحق والطريق السوي فلا تبتئس من عنادهم واثبت على دعوتك، أما هم فإنهم هم المخطئون قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾(٣) أي مائلون ومبتعدون عن الصراط المستقيم، فلذلك سيضيعون في التيه لبعدهم عن هذا الطريق المستقيم وإن الشياطين سينفردون بهم ويضلونهم وذلك من وعيد إبليس للبشر، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(٤) فإنه سيقف في طريق البشر ليجعلهم يميلون عن الصراط المستقيم فيتلقفهم بالغواية والإغواء والإضلال.

أما الصراط الحسي فهو الذي ينصب يوم القيامة فوق جهنم فيعبر عليه الناس قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(٥).

قال في فتح القدير: والورود: هو المرور على الصراط ا هـ. والصراط هو الجسر الذي ينصب فوق جهنم فيعبر الناس عليه إلى الجنة فمنهم من يسقط وهم الكفار

---

(١) مريم ٤٣.

(٢) و (٣) المؤمنون ٧٣ – ٧٤.

(٤) الأعراف ١٦ – ١٧.

(٥) مريم ٧١ – ٧٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومنهم من ينجو وهم المؤمنون، ففي صحيح مسلم عن حذيفة وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة – تقرّب – فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلاً من وراءَ وراء، اعمدوا إلى موسى الذي كلمه تكليماً، قال: فيأتون موسى، فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمداً ﷺ فيقوم، فَيُؤْذن له وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق قال: قلت: بأبي وأمي أي شيء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح ثم كمر الطير، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلِّمْ سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج ومكدوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جنهم لسبعين خريفًا»(١).

فهذا هو الصراط الذي ينصب يوم القيامة ليمر عليه جميع الخلائق من البشر وتكون سرعتهم عليه بحسب أعمالهم ولطف الله بهم، ومن كان من أهل النار سقط عنه في النار، وفي رواية أخرى لمسلم منها: «وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله» وعن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة: رب سَلِّم سَلِّم»(٢) أخرجه الترمذي.

فالله سبحانه وتعالى استعار عبارة «الصراط المستقيم» بمعنى الدين الحق وذلك

---

(١) جامع الأصول ٨٠١٦.

(٢) المصدر نفسه ٨٠٠٦.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

للارتباط القوي بينهما فالدين الحق هو كالطريق المستقيم الذي لا ميل فيه ولا عوج، وكذلك فإن أتباع هذا الدين الحق سيجوزون على هذا الصراط المستقيم الذي سيوصلهم إلى الجنة، وأما الناكبون عن طريق الحق فإنهم لن يستطيعوا اجتياز الصراط المستقيم ، فهناك إذًا ارتباط وثيق بين الصراط المستقيم والطريق الحق وهو الدين، فجاز استعارة الصراط المستقيم له فالآية ﴿ **لنهديك صراطا مستقيما** ﴾ يصح فيها لنهديك إلى الدين الحق، ويصح فيها لنهديك إلى الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة، فلا يصل إلى الجنة إلا صاحب الدين الحق ولا يصل إلى الجنة إلا من سلك الصراط المستقيم ، فالعبارتان تؤديان إلى معنى واحد وإلى هدف واحد وهو الإيمان الحق بالدين الحق، وقد ورد المعنيان في القرآن الكريم فما ذكرناه سابقًا من آيات تدل على معنى اتباع الدين الحق، وما سنذكره الآن يدل على معنى العبور الفعلي فوق الصراط قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ وهذا يفسره الحديث الطويل المروي عند مسلم وفيه: «ويعطى كل إنسان منهم – منافق أو مؤمن – نوراً ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون» ويفسر الآية السابقة، فمن هول الموقف وإرادة الخلاص منه، ينصب الصراط فيستبق الناس إليه، فيطمس الله أعين أهل النار، وذلك بإطفاء النور عليهم لأن العين لا تبصر في الظلام فكأنها أصبحت عمية وذهب بصرها. قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ وهذا أيضًا يبين حالة الذين يعبرون على الصراط يوم القيامة، فالمؤمنون كما مر في الحديث السابق منهم من يجوز الصراط كالبرق ومنهم كمر الريح ومنهم كمر الطير، ومنهم كجري الرجال ومنهم يزحف زحفاً ومنهم من تخدشه الكلاليب فلا يقع ومنهم من تخطفه الكلاليب فيهوي في النار، لذلك دعاهم إلى الإيمان الحق لكي يسيروا بشكل سوي على الصراط المستقيم دون تأرجح أو عقبات.

فعند مسلم قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف»

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهكذا يراه العصاة.

ولا يظن ظان أن نار جهنم الملتهبة تضيء الصراط لأنه منصوب فوقها فهذا تصور باطل، ففي الحديث الشريف: «أنه أوقد على النار ألف سنة حتى ابيضت، وألف سنة حتى احمرت وألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة».

قال الله تعالى يبين حالة المنافقين الذين انقطع عنهم نور المؤمنين فوق الصراط: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾(١)

وفي الصحيحين عن أنس، أن رجلاً قال: «يا رسول الله، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»(١)

وورد في الصحيحين أن الذي يمر على الصراط هم المؤمنون برهم وفاجرهم، أما الكفار فإن كل فئة تتبع ما كانت تعبد، فتكب في جهنم ثم يتبعهم كفرة اليهود ثم كفرة النصارى ثم يأتي المؤمنون فيسجدون لله ثم يضرب لهم الجسر أو الصراط.

وهذا مذكور في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري وهو طويل ومفصل.

وبعد فأرجو أن أكون قد وفيت شرح هذه الوصايا فما أحسنت فيه فمن الله وتوفيقه وما أخطأت فيه فمن نفسي ولا يسعني إلا أن أقول: اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً وفقهني في الدين، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار، اللهم اجعلني أعظم شكرك وأكثر ذكرك وأتبع نصحك وأحفظ وصيتك، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار بعفوك يا أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة الحديد: ١٣.

(١) جامع الأصول ٧٩٤٩.

شبكة الألوكة
www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
التمهيد	٦	الشرك ضلال وتيه	٣٦
أهمية الآيات وما قيل فيها	٧	نماذج م التيه والضلال	٣٧
معنى المحكم والمتشابه	٨	فرعون وبنو إسرائيل	٣٩
الوصية الأولى	١٢	قوم صالح وطيش عقولهم	٤٠
أكبر الكبائر	١٨	كفار مكة	٤١
قصة مخيريق اليهودي	٢٢	ضلال اليهود في المدينة	٤٣
الشرك والكفر متلازمان	٢٣	الإيمان هدى ونور	٤٤
بعض أهل الشرك : أ – اليهود	٢٤	أبوبكر الصديق	٤٥
ب – النصارى	٢٧	عمر بن الخطاب	٤٧
ج – المنافقون	٢٩	مؤمن آل فرعون	٥٠
بعض ما عملوه في المدينة	٣٠	ليس للشيطان على المؤمنين سبيل	٥٢
في غزوة بني قينقاع	٣٠	حوار آدم وإبليس	٥٣
في غزوة بني النضير	٣١	حصن المؤمن من الشيطان	٥٥
في غزوة المريسيع	٣١	الذين جعلوا لله شركاء	٥٧
في غزوة أحد	٣٣	فتنة المال تؤدي إلى الشرك	٥٩
في غزوة الخندق	٣٣	أهل الإيمان وتلاوم أتباع الشيطان	٦١
مسجد الضرار	٣٤	صورة أهل النار من التلاوم	٦٤
المنافقون يستهزئون بالمسلمين داخل المسجد	٣٤		

إهداء من شبكة الألوكة
www.alukah.net

الموضوع	رقم الصفحة
الوصية الثانية	٦٦
القرآن الكريم يؤكد على بر الوالدين	٦٦
طاعتهما في غير معصية الله	٦٧
من أحق بالبر؟	٧١
البر يبقى حتى بعد موت الأبوين	٧٣
أثر بر الوالدين على الولد البار	٧٤
عقوق الوالدين	٧٦
قصة جريج	٧٧
الخليفة العباسي المتوكل على الله	٧٨
الوصية الثالثة	٧٩
اهتمام الإسلام بالأولاد	٨٠
من أخبار العرب في وأد البنات	٨٢
الحث على إكرام الأبناء عموماً والبنات خصوصاً.	٨٣
الوصية الرابعة	٨٧
أخطار الزنا	٩٠
من أخطار الزنا أيضًا	٩١
الجاهلية تخطئ والإسلام يضع الحل	٩٢
ومما سببته الجاهلية	٩٤
الحاقدون على الإسلام والمسلمين	
يعملون على سلب هذه الميزة منهم	٩٨
القرامطة	٩٩
ما حصل في أمة الفرس قبل الإسلام	١٠٠
اليهود في الماضي والحاضر	١٠١
فتنة النساء	١٠٢
اللواط	١١٠
الوصية الخامسة	١١٢
تحريم إراقة الدماء	١١٥
أول جريمة قتل على وجه الأرض	١١٧
الإسلام ينهى عن ترويع المسلم	١١٩
فتن أزهقت الأرواح	١٢٠
الحجاج بن يوسف وسعيد بن جبير	١٢٤
الله نصير المظلومين	١٢٥
نصيحة عمر بن عبد العزيز	١٢٦
الوليد بن عبد الملك	
القرامطة يقتلون الحُجاج	١٢٧
العفو عند المقدرة	١٢٨

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الموضوع	رقم الصفحة
مآخذ على بعض الحكام	١٢٨
الوصية السادسة	١٣٣
سورة النساء والاهتمام بالأيتام	١٣٧
الوصية السابعة	١٤٣
قصة قوم شعيب عليه السلام	١٤٦
الإسلام يهتم بأمر المكيال والميزان	١٥٢
حذر الإسلام من الإنقاص من المساحة	١٥٧
تجار اليوم يحومون حول تطفيف الكيل والميزان	١٥٨
الوصية الثامنة	١٦١
أهمية الكلمة بالنسبة لقائلها	١٦١
أمانة الكلمة	١٦٣
المنافقون وتضييع أمانة الكلمة	١٦٥
اليهود وأمانة الكلمة	١٦٧
قصة اليهود مع عبد الله بن سلام	١٦٨
من أمانة الكلمة عدم كتمان العلم	١٦٩
النصارى سلكوا طريق اليهود في تضييع كلمة الحق	١٧١
المديح	١٧٢
عمر بن عبد العزيز والشعراء	١٧٤
شهادة الحق	١٧٧
شهادة الزور والتغليظ على فاعلها	١٧٩
نماذج من قضاء المسلمين	١٨٠
الوصية التاسعة	١٨١
الالتزام بالعهد وأهمية عند المسلمين	١٨٢
أمثلة من وفاء المسلمين بالعهود	١٨٤
قصة خيبر	١٨٤
ومن قصص الالتزام بالعهود	١٨٦
أمثلة من وفاء المسلمين بالعهد	١٨٩
الوفاء بالوعد	١٩٢
الوفاء بالوعد من صفات المؤمنين	١٩٥
الوصية العاشرة: وفيها	١٩٧
– الصراط المستقيم.	١٩٧
– السبل.	١٩٨
المرور على الصراط	٢٠٠

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net